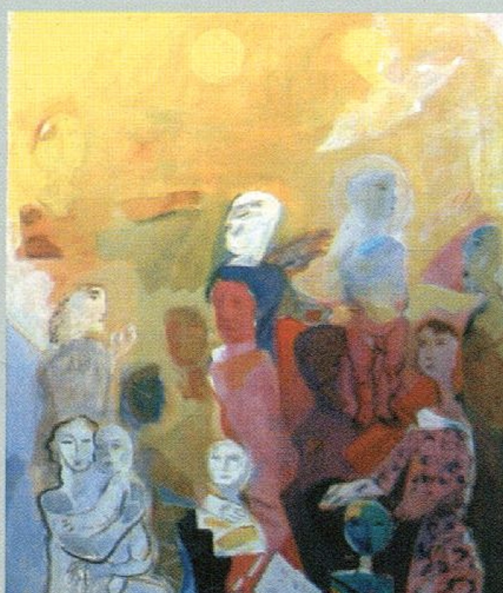
هاروكي موراكامي

جنوب الحدود غرب الشمس

رواية

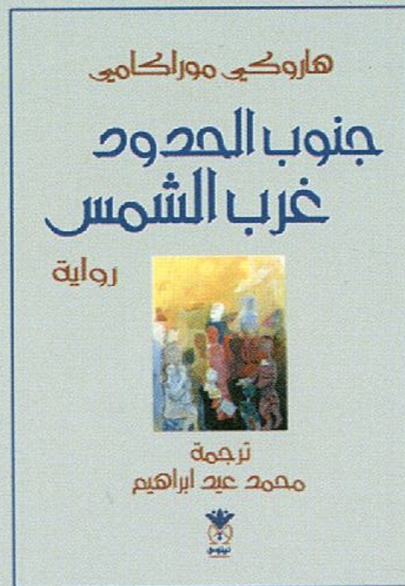


ترجمة
محمد عيد ابراهيم

نينوى

SOUTH OF THE BORDER WEST OF THE SUN

Haruki morakami



ولد هاروكي موراكامي عام ١٩٤٩ في مدينة كيوتو باليابان، وقابل زوجته يوكو بالجامعة، ثم افتتح نادياً ليلياً للجاز في طوكيو، أطلقا عليه "بيتر كات". وكان للنجاح الصاعق لروايته الأولى "غابة نرويجية" (١٩٨٧) أثر بالغ في شهرته المحلية، إذ باعت تسعة ملايين نسخة، لكنه فر من اليابان ولم يعد إلا عام ١٩٩٥.

رواياته الأخرى: "بعد الزلزال"، "ارقص ارقص ارقص"، "انقراض الفيلة"، "أرض العجائب الحارّة في نهاية العالم"، مترو الأنفاق"، "طِراد العنز البري"، تاريخ خواتم الطير"، "القمر الصناعي الحبيب"، "جنوب الحدود، غرب الشمس"، "كافكا على الشاطئ".

وقد قام موراكامي بتر... من
أهمّ كتّاب العالم لليابانية، ... لد،
ترومان كابوت، جون ارفنج ...

نينوى

جنوب الحدود
غـرب الشمس

اسم الكتاب: جنوب الحدود، غرب الشمس - رواية

اسم المؤلف: هاروكي موراكامي

اسم المترجم: محمد عيد إبراهيم

١٠٠٠/٢٠٠٧م - ١٤٢٧هـ

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣ +

موبايل: ٠٠٩٦٣٩٣٣٤٤٩٧٣٤

E-mail:ninawa@scs-net.org

العمليات الفنية: التنضيد والإخراج والطباعة

وتصميم الغلاف في مطبعة دار نينوى

القسم الفني دمشق - سوريا

القياس ١٤,٥ ◆ ٢١,٥

عدد الصفحات: ٢٠٠

لوحة الغلاف: الفنان إدوارد شهدا

هاروكي موراكامي

جنوب الحدود
غرب الشمس

رواية

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

Author: Haruki morakami
Original Title: South Of The Border
West Of the Sun

First Edition:
2007- 1427

Dar ninawa
Damascus – Syria

-١-

ولدتُ يوم ٤ يناير ١٩٥١. في الأسبوع الأول من الشهر الأول من العام الأول من النصف الثاني من القرن العشرين. وما يستحقّ الذكرى، على ما أظنّ، هو السبب الذي جعل والديّ يسميانني هاجيمي[1]. فيما عدا ذلك، فهو ميلاد معتاد ١٠٠٪. كان والدي يعمل سمسار بورصة، وأمي ربّة بيت نمطية. بالحرب، استُدعي أبي وهو طالب، فأرسلوه للطيران في سنغافورة؛ وبعد الاستسلام قضى زمناً في معسكر أسرى الحرب. دُمّر منزل أمي في غارة من طائرات B29 عام ١٩٤٥. وعانى جيلهم أمداً من الحرب الطويلة.

مع ذلك، فحين ولدتُ، لا تعرف أن حرباً قامت هناك. فلا مزيد من الخراب المدمّر، ولا مزيد من جيش محتلّ. كنا نعيش في بلدة صغيرة هادئة، في منزل زوّدتنا به شركة والدي. منزل من قبل الحرب، قديم نوعاً، لكنه فسيح كفاية. تنمو في حديقته أشجار صنوبر، ولدينا بركة صغيرة وبضعة مصابيح حجرية.

كانت البلدة حيث أعيش ضاحية للطبقة المتوسطة التقليدية. يسكن زملاء دراستي في منازل أنيقة بشرفات ضيّقة؛ قد يكون بعضها أوسع قليلاً مما لدينا، لكن ضع في الحُسبان أن لها جميعاً الشرفات نفسها وبحدائقها أشجار صنوبر. أما الوظائف، فآباء زملائي يعملون بشركات أو مهنيون من نوع خاصّ. وفي شأن أمهاتهم، فنادراً ما تعمل إحداهن. كلّهم تقريباً يربّي قطّة أو كلباً. ولم أعرف أحداً يعيش في شقّة أو مَجمَع سكنيّ. انتقلتُ فيما بعد إلى حيّ آخر من البلدة، لكنه كان متطابقاً

(١) هاجيمي: تعني باليابانية "بداية". (م)

على حدّ سواء. ولهذا فإنه حتى انتقالي إلى طوكيو للانخراط في الكلية، كنتُ مقتنعاً بأن العالم كلّه يعيش في منازل عائلية وحدهم مع حديقة وحيوان مدلّل، كما يذهبون للعمل في بدلة. لم أتصوّر نمط حياة مختلفاً.

في العالم الذي نشأتُ فيه، للعائلة النموذجية طفلان أو ثلاثة. وأصحاب طفولتي أفراد عائلات اعتيادية. إن لم يكن طفلان بالعائلة فثلاثة؛ إن لم يكن ثلاثة فاثنان. أما العائلات المكوّنة من ستة أو سبعة أطفال فهي قليلة ومتراوحة فيما بينها، لكن الغريب أن يكون للعائلة طفل واحد وحيد.

وحدث أن كنتُ أحد هؤلاء الغرباء، فأنا الطفل الوحيد. عندي عقدة نقص من ذلك، فأنا مختلف، ولدى الآخرين مصداقية تُعوزني.

كنتُ أبغض مصطلح "الطفل الوحيد". وكلّ مرة أسمعه، أحسّ بفقداني شيئاً - كأني لستُ كائناً مكتملاً. وتقف عبارة "طفل وحيد" لتشير نحوي بإصبع اتّهام. تُبلغني "صديق، لكنه ناقص نوعاً".

في العالم الذي عشتُ فيه، يشيع أن الوحيدين مدلّلون من قِبَل آبائهم، ضعفاء، أنانيون. أمر معروف كحقيقة أن البارومتر[1] يهبط مؤشّره كلّما مضيت لأعلى أو البقر تهب الحليب. ويتبدّى بُغضي حين يسألني امرؤ عن عدد أخوتي وأخواتي. أُسمعهم أنه ليس عندي فيُحكِم الظنّ بالغريزة: "طفل وحيد، هه؟ مدلّل، ضعيف، أناني"، كما أحدس. ردّ فعل كضربة تحت الرُكبة يُحبطني، ويؤلمني. لكن أكثر ما كان يُحبطني ويؤلمني شيء آخر: حقيقة أن ظنّهم بي كان صحيحاً.

(١) البارومتر: جهاز لقياس الضغط الجويّ. (م)

في السنين الستّ التي قضيّتها بالمدرسة الابتدائية، صادفتُ ولداً وحيداً آخر فقط. أذكرها بوضوح (نعم، كانت فتاة). وثّقتُ علاقتي بها، وكنا نتكلّم في كلّ شيء. تفهّم بعضنا الآخر. ويمكن القول إني أحببتها.

اسمها الأخير شيماموتو. فبعد مولدها أُصيبت بشلل أطفال، مما حدا بها إلى أن تجرّ رِجلها اليسرى. وقد انتقلت لمدرستنا نهاية الصفّ الخامس. بالمقارنة معي، إذن، فلديها حِمل فظيع من المتاع النفسيّ تكافح به. لكن هذا المتاع قد جعلها طفلة وحيدة أقسى طباعاً، رابطة الجأش أكثر مما أنا عليه. فلم تكن تنتحب أو تشكو قط، ولم تُدل يوماً بإشارة عما تحسّ به من توتّر أحياناً. ومهما حدث، تغتصب ابتسامة. وأسوأ الأشياء، حقاً، كان يوسّع ابتسامتها. أحبّ ابتسامتها. تُلطّف مني، تحفزني. تُبلغني "سينتهي كلّ شيء. انتظر هناك، وسينتهي كلّ شيء بخير". بعد سنين، كلّما فكّرتُ فيها، كانت ابتسامتها هي ما يهلّ على بالي أولاً.

شيماموتو طيبة مع الجميع. يحترمها الناس. وفي هذا المقام كنا أنا وهي مختلفين، مع أننا طفلان بعد. لا يعني هذا أن صفّنا كلّه كان يحبها. لكن لا يضايقها أحد أو يسخر منها، وليس لها أصحاب سواي.

ربما كانت جامدة، رابطة الجأش. يظنّها بعض صفّنا باردة متعجرفة. لكني تبيّنتُ شيئاً آخر - دافئاً هشّاً تحت السطح. شيء يشبه إلى حدّ كبير طفلاً يلعب استغماء، يختبئ عميقاً بداخلها، على أمل العثور عليه.

كان أبوها يتنقّل ضمن حدود شركته، فلزم على شيماموتو أن تختلف إلى مدارس عدّة. نسيتُ وظيفة أبيها. مرة، وضّحت لي بالتفصيل طبيعة عمله، لكن كما يحدث مع معظم الصغار، دخل في أذن وطلع من أخرى. أتذكّر على ما يبدو مهنة تتعلّق ببنك أو مكتب ضرائب أو نحوه. وهي تعيش بسكن الشركة، لكنه كان أوسع من المعتاد، منزل ذو

طابع غربيّ يحيط به سور حجريّ واطئ. فوق السور سياج دائم الخضرة وبين الفتحات تلمح حديقة ذات مروج.

شيماموتو ضخمة البنيان، طويلة مثلي، بملامح صادمة. لكني كنتُ على يقين من أنها خلال سنوات ستصبح رائعة. حين قابلتها في البداية لم تكن مسحتها الخارجية تواكب سماتها الداخلية. فيها شيء مختلّ التوازن، ولا يحسّ كثيرون بأنها جديرة بالنظر. كان بها جزء بالغ وجزء لا يزال طفلاً؛ وكل منهما غير متزامن. وهو ما لم يكن يبعث على الراحة.

لأن منازلنا متقاربة، للأمانة على مرمى حجر من بعضها البعض، فبعد أول شهر من مجيئها لمدرستنا حُدّد لها مقعدي المجاور. أخبرتها عما هي في حاجة إليه من كتب مدرسية، طبيعة الاختبارات الأسبوعية، كم قطعنا بكلّ كتاب، كيفية النظافة ومَهمّات تقديم الغداء. من سياسة مدرستنا أنه على الطفل الذي يعيش أقرب من أيّ مستجدّ أن يساعده؛ فتنحّى بي معلّمي ليبلغني أنه يتوقّع مني بذل رعاية خاصة مع شيماموتو، نظراً لرجلها العرجاء.

ولأن الأطفال كانوا، سواء البالغين أحد عشر أو اثني عشر، يتكلّمون مع الجنس الآخر للمرة الأولى، فقد ظلّت حواراتنا متوتّرة نحو يومين. وحين اكتشفنا أننا مجرّد أطفال، ارتحنا. كانت أول مرة يقابل فيها كلّ منا آخر وحيداً. ولدى كلٍ منا قناعات بداخله عن طبائع الوحيدين. كنا نسير غالباً للبيت معاً. في بطء، بسبب رِجلها، نسير ثلاثة أرباع ميل للعودة، نتكلّم عن كلّ شيء. كلّما تكلّمنا، زاد إدراكنا لما نملكه بشكل عام: حبنا للكتب والموسيقى؛ ناهيك عن القطط. ولكلّ منا وقت عصيب فسّر فيه مشاعره للآخرين. لدينا قائمة طويلة من الطعام

أوضحت لي كنه هذه الأشياء: أنه ضمن العالم الحقيقيّ يوجد مكان كهذا. مسافة تلك الثواني العشر صرتُ طائراً صغيراً، يرفرف في الهواء، تطوّحه الريح. ومن أعالي السماء رأيتُ المشهد من بعيد. كان من بعيد فلم أتبيّنه واضحاً، لكني رأيتُ شيئاً هناك. وعرفتُ أني ذات يوم سأرتحل إلى ذلك المكان. وجعلني هذا الـ ك ش ف، أحبس أنفاسي، فقد أرعب صدري.

عدتُ للبيت، وجالساً إلى مكتبي، حدّقتُ زمناً في الأصابع التي ش ب كتها شيماموتو. كنتُ في حالة وَجد من أنها م ... ك ... يدي. وقد أدفأت لمستها الناعمة قلبي أياماً. كما حيّرتني. جعلتني مرتبكاً، وحزيناً إلى حدّ. كيف أعبّر إذن عن مثل هذا الدفء؟

حين تركنا المدرسة الابتدائية، انفصلنا أنا وشيماموتو بمدرستَين ثانويتَين. انتقلتُ من البيت الذي عشتُ فيه حتى وقتئذ إلى بلدة جديدة. أقول بلدة جديدة، لكنها على بُعد محطّتَي قطار من حيث نشأتُ، وفي الأشهر الثلاثة الأولى بعد انتقالي مضيتُ لأراها ثلاث أو أربع مرات. ذلك ما كان. ثم كففتُ أخيراً عن الذهاب. كنا في سنّ مرهَف، فذهابنا إلى مدارس مختلفة وحياتنا على بُعد محطّتَي قطار خلاّني أحسّ أن عوالمنا تغيّرت. اختلف أصحابنا، وكذا زيّنا وكتبنا المدرسية. فقد كان جسمي وصوتي وطريقة تفكيري يجتاز تغيّرات مفاجئة، كما تهدّد صحوة غير متوقّعة ذلك العالم الحميم الذي ابتدعناه. وكانت شيماموتو، طبعاً، تكابد تحوّلات فيزيقية ونفسية أكبر. وجعلني هذا كلّه غير مطمئنّ. بدأت أمها تنظر إليّ في غرابة. بدا كأنها تقول، لماذا يظلّ هذا الولد يأتي هنا؟ فلم يعد يقطن الحيّ المجاور، كما يذهب لمدرسة مختلفة. وربما كانت حساسيتي زائدة.

تباعدنا أنا وشيماموتو، وانتهيتُ إلى عدم رؤيتها مطلقاً. وكان ربما (ربما، الكلمة الوحيدة التي أفكّر في استخدامها هنا؛ فليست وظيفتي التحقّق من شساعة الذكرى المدعوّة الماضي، والحكم بما هو صحيح وما هو غير صحيح) خطأ. كان عليّ أن أبقى قريباً منها قدر الممكن. كنتُ أحتاجها، وهي تحتاجني. لكن وعيي الذاتيّ كان بالغ المراس، وخشيتُ أن يؤذيني أحد. فلم أرها ثانية. إلى سنين عددا، وهذا ما كان.

حتى بعد انقطاعنا عن رؤية بعضنا الآخر، كنتُ أفكّر فيها بافتتان كبير. تحفزني ذكرياتها، تُهدّئني، كلّما اجتزتُ حيرة البلوغ أو ألمه. ولمدّة طويلة، ظلّت تحتلّ مكانة في قلبي. احتفظتُ لها فحسب بهذه المكانة، كشارة "محجوز" على طاولة في ركن هادئ بمطعم. على رغم يقيني من أني لن أراها ثانية.

حين تعرّفتُ عليها كنتُ لا أزال في الثانية عشر، دون أية أحاسيس جنسية حقيقية أو شهوة. مع اعتراف مني بشوق متشكّل غامض نحو انتفاخ ثدييها وما يقع وراء جونلتها. لكن لم يكن عندي فكرة عما يعنيه ذلك، أو إلى أين يفضي.

بأذنين مرفوعتين وعينين مغمضتين، تصوّرتُ مكاناً معيّناً. والمكان الذي تصوّرته لا يزال منقوصاً. كان غائماً، غامضاً، بحدود مبهمة. مع ذلك كنتُ على يقين من أنه شيء مهلك، شيء يرقبني هناك. وعرفتُ هذا: كانت شيماموتو تُحدّق في المشهد نفسه.

كنا، كلانا، كائنات منشطّية، نبدأ الإحساس بحقيقة غير متوقّعة، علينا اكتسابها، فهي تُفعمنا وتجعلنا كلاً واحداً. وقفنا أمام باب لم نره سابقاً. وحدنا، خلف ومضة نور، حين اشتبكت يدانا معاً عشر ثوانٍ زائلة.

ـ ٢ ـ

في المدرسة الثانوية، كنتُ مراهقاً نمطياً. هي المرحلة الثانية من حياتي، خطوة في تطوّري الشخصيّ؛ فقد هجرتُ فكرة كوني مختلفاً، وشرعتُ إلى حالة سويّة. ليس لأنني لم يعد عندي متاعب خاصّة. فمَن بالسادسة عشر ليس عنده؟ لكنني تسحّبتُ تدريجياً أقرب إلى العالم، وتسحّب العالم أقرب إليّ.

في الوقت الذي كنتُ فيه بالسادسة عشر لم أعد مجرّد طفل وحيد صغير سقيم. في المدرسة الثانوية، بدأتُ الذهاب لدروس السباحة قرب منزلي. برعتُ في السباحة السريعة، وكنتُ أذهب مرتين أسبوعياً لسباحة المسافات. انتفخ صدري وكتفاي، ونمت عضلاتي أقوى وأشدّ. لم أعد من نوعية الطفل العليل الذي يسيل حرارة لدى إسقاط قبّعة ثم يفزّع لفراشه. أقف عارياً أمام مرآة الحمّام غالباً، مدقّقاً في كلّ زاوية وصدع من جسدي.

استطعتُ تقريباً رؤية التغيّرات الفيزيقية السريعة أمام عينيّ. وأتمتّع بها. لا أعني ارتجافي لكوني بلغتُ. بل لأن عملية النضج التي أتمتّع بها كانت أقلّ من رؤية التحوّلات فيّ. وقد صرتُ شخصاً جديداً.

أحببتُ القراءة وسماع الموسيقى. كنتُ أعشق الكتب دائماً، وتعزّز اهتمامي بها في صداقتي مع شيماموتو. فبدأتُ الذهاب للمكتبة، ألتهم كلّ كتاب تقع عليه يداي. ولو بدأتُ أحدها، فلا يمكنُ التخلّي عنه. القراءة إدمان؛ كنتُ أقرأ وأنا آكل، في القطار، في الفراش حتى ساعة متأخّرة ليلاً، في المدرسة، حيث أُبقي الكتاب مخفياً لأقرأه أثناء الدرس. ولم يمض وقت طويل حتى اشتريتُ مسجّلة صغيرة وصرتُ أقضي وقتي

كلّه في غرفتي، أنصت لاسطوانات الجاز. لكن لم تكن بي رغبة للكلام مع أحد عن الخبرة التي أكتسبها من الكتب والموسيقى. شعرتُ بالسعادة لكوني أنا، لا أحد غيري. وهكذا سمّوني، المستوحد المغرور. كرهتُ الرياضات الجمعيّة كلّها. كرهتُ أيّ تنافس، حيث يجب أن أسجّل نقاطاً ضدّ آخر. فضّلتُ مواصلة السباحة، في صمت.

لم أكن مستوحداً. فقد توصّلتُ إلى تكوين بعض صداقات حميمة في المدرسة، ثلّة على الأقلّ. لكني كرهتُ المدرسة. شعرتُ أن هؤلاء الأصدقاء يسعون لتحطيمي طيلة الوقت، وعليّ دائماً أن أستعدّ للدفاع عن نفسي. بثّ هذا فيّ قسوة. وإن لم أفعلها مع أصحابي، لخرجتُ من سنين مراهقتي الغادرة بمزيد من الندوب.

بعد بدئي السباحة، لم أعد أعاف أيّ طعام آكله، واستطعتُ الكلام مع الفتيات دون خجل. ربما كنتُ طفلاً وحيداً، لكن لم يُعر أحد من جديد أهمية لهذه الفكرة. بدا أني حرّرتُ نفسي، على الأقلّ ظاهرياً، من لعنة الطفل الوحيد.

وصارت لي صديقة.

*

لم تكن جميلة على نحو خاصّ، ولا النمط الذي تشير إليه أمّك في صورة الفصل على أنها أجمل فتاة بالمدرسة. لكن أول مرة قابلتها، ظننتُ أنها أشدّ فتنة. لا يمكن أن تراها في صورة، لكن لها دفء مباشر يجذب الناس. لم تكن من نوعية الجمال الذي أتباهى به. لكني لم أكن صيداً ثميناً، أنا الآخر.

كنا أنا وهي بالفصل نفسه في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية، ونخرج غالباً متواعدَين. في أول موعدَين، توحّدنا. ولسبب ما، أحسستُ

معها بالراحة. أستطيع قول أيّ شيء، وتنصت بانتباه. قد أُهرّف، لكنكَ تتخيّل من تعبيرات وجهها أني أبوح بكشف هائل سيُغيّر مجرى التاريخ. أول فتاة منذ شيماموتو يفتنها ما أقول. ومن جهتي، أردتُ أن أعرف ما عليّ أن أعرفه عنها. ما تأكله كلّ يوم، بأيّ طابع من الحجرات تعيش. ما تراه من شبّاكها.

اسمها، ايزومي. تعرفين معنى اسمكِ، أخبرتها أول ما تكلّمنا. يعني باليابانية "نبع جبليّ". قلتُ، اضربي بفأس، فتطلع جنيّة، وأنا أفكّر في حكاية خرافية. فضحكت. لها أخت تصغرها ثلاث سنوات، وأخ يصغرها خمس سنوات. والدها طبيب أسنان، ويعيشون - دون دهشة - في منزل مستقلّ، مع كلب. كلب إلزاسي[1] يُدعى كارل، تيمّناً بكارل ماركس، صدّق أو لا تصدّق. كان والدها عضواً بالحزب الشيوعي اليابانيّ. على فرض أن هناك أطباء أسنان شيوعيين في العالم، فمجموعهم لا يملأ أربعة أو خمسة باصات. فكّرتُ، من حسن حظّي أن والد صديقتي واحد من هذه السلالة النادرة. كان والدا ايزومي مُغرمَين بالتنس وكلّ أحد تجدهما، بالمضارب في اليد، متوجّهَين للملعب. طبيب أسنان شيوعيّ مولع بالتنس - يا له من جُماع فاتن! لا تهتمّ ايزومي بالسياسة، لكنها تحبّ والديها، وتنضمّ إليهما في لعبة التنس كلّما سنحت فرصة. حاولت دفعي إلى اللعب، لكن التنس لم يكن من أوّلياتي.

تغمطني لكوني وحيداً. فلم تكن على وفاق مع أخيها ولا أختها. بالنسبة إليها، كانا مغفّلَين متحجّرَي القلب، ولا يعنيها إن لم ترهما

(١) إلزاسيّ: نسبة إلى الإلزاس، في فرنسا. (م)

ثانية. قالت، وددتُ لو كنتُ طفلاً وحيداً؛ أعيش كما يحلو لي، دون أن يضايقني أحد كلّما رُحت أو جئتُ.

بميعادنا الثالث، قبّلتُها. جاءتني بيتي في ذلك اليوم. وكانت أمي تتسوّق بالخارج، فخلا لنا المكان. قرّبتُ وجهها، ولمست بشفتيّ شفتيها، فأغمضت عينيها، وصمتت. جهّزتُ عشرات الأعذار حال أن تغضب أو تروح، لكني لم أحتج أياً منها. ظلّت شفتاي بشفتيها، وذراعاي حولها، فسحبتُها أقرب. الوقت في نهاية الصيف، وكانت تلبس فستاناً قطنياً مخطّطاً. محبوك على الخصر، وحزامه معلّق دون إحكام خلفها كالذيل. لمست يداي مِشبك حَمّالة الثديين. فشعرتُ بأنفاسها على رقبتي. هجتُ إلى درجة أن نطّ قلبي من جسدي. وكان قضيبي على وشك الانفجار؛ فضغطَ على فخذها، وهي دارت قليلاً إلى جانب. ذلك ما كان. ولا يبدو أنها انزعجت.

جلسنا وقتاً على الكنبة، نشدّ بعضنا البعض في حضن. قبالتنا قطّ على الكرسيّ. فتح عينيه وهو ينظر نحونا، وتمطّى، ثم راح في النوم. لاطفتُ شعرها، وأنا أضع شفتيّ على أذنيها الدقيقتَين. ظننتُها ستقول شيئاً، لكن لم يصل مسامعي نأمة. كنتُ أتنفّس جاهداً، فنحّيتُ عني الكلام. أخذتُ يدها، وقبّلتُها من جديد. هدأنا، إلى زمن طويل.

بعد أن رأيتها تخرج للمحطّة، لم أستطع الهدوء. فعدتُ أدراجي، ورقدتُ على الكنبة أتطلّع في السقف. عقلي في دوّامة. عادت أمي أخيراً، ثم أعلنت أنها أعدّت العشاء. لكن الطعام كان آخر ما أفكّر فيه. دونما كلمة، خرجتُ أهيم في البلدة مدّة ساعتين. إحساس غريب. لم أعد وحدي بَعد، مع أني شعرتُ بوحشة عميقة، في الوقت نفسه، لم أخبرُها

قبلاً. حين لبستُ نظّارتي أول مرة، أحسستُ بالمنظور قد تحوّل فجأة. استطعتُ تلمّس البعيد، وما كان غائماً صار له وضوح بلوريّ.

حين تركتني ايزومي ذلك اليوم، شكرتني وهي تخبرني كم أنها سعيدة. لم تكن وحدها سعيدة. لم أصدّق أن فتاة سمحت لي فعلياً بتقبيلها. فلِمَ لا أكون في بحران نشوة؟ حتى وقتئذٍ، لم أكن سعيداً بدون تحفّظ. كنتُ برجاً فقد قاعدته. كنتُ عالياً، وكلّما تطلّعتُ إلى مسافة زاد ذهولي. فسألتُ نفسي، لماذا هي؟ وماذا أعرفه عنها عموماً؟ لقد قابلتها عدداً من المرات، كلّمتها قليلاً، وذلك ما كان. فصرتُ عصبياً، متململاً، لا أسيطر على نفسي.

لو كانت شيماموتو، فلا حيرة إذن. لأن كلاً منا، دون كلام يُقال، يتقبّل الآخر. لا مشاعر ريبة، لا ارتباك. لكن شيماموتو لم تعد حولي. هي في عالم جديد يخصّها، وكذلك أنا. المقارنة بين ايزومي وشيماموتو خَلو من النقاط. فالباب المفضي إلى عالم شيماموتو صُفق ورائي بعنف، وكنتُ في حاجة للعثور على محصولي عند شخص آخر جديد، ومختلف.

ظللتُ ساهراً حتى نثّ الضوء واهناً في السماء الشرقية. نمتُ ساعتين، ثم أخذتُ حمّاماً ومضيتُ للمدرسة. فتّشتُ عن ايزومي، لأكلّمها عما صار بيننا. أردتُ أن أسمع من شفتيها أن مشاعرها لم تتغيّر. آخر ما قالته هو كم أنها سعيدة، لكن مع ضوء الفجر البارد بدا ما حلمتُ به محض أوهام. وانتهى اليوم دون فرصة للكلام معها. في الفُسحة مع صاحباتها، وحين انتهت المدرسة راحت للبيت مباشرة. مرة فقط، ونحن بالممرّ نغيّر الحصص، تبادلنا النظرات. ابتسمت فرحةً، وهي تلمحني، ورددتُ الابتسامة. ذلك ما كان. لكن بابتسامتها لمحتُ شهادة على ما حدث اليوم السابق. كأن ابتسامتها تُبلغني، الأمور بخير. حدث هذا بالأمس فعلاً.

ووقت أن كنتُ بالقطار عائداً، تبخّرت حيرتي. كنتُ أريدها، ورغبتي بزّت شكوكي.

ما أريده واضح، كفاية. ايزومي عارية، وتمارس معي الجنس. مع أن هذا الهدف الأخير لا يزال بعيداً على الطريق. فهناك نظام معيّن من الأحداث عليكَ أن تتّبعه. للوصول إلى الجنس، عليكَ أولاً أن تفكّ حزام فستان الفتاة. وبين الحزام والجنس عملية تتطلّب حوالي عشرين، قُل ثلاثين، قراراً وحكماً حاذقاً عليكَ باتّخاذه.

أول كلّ شيء، عليّ شراء واقيات ذكريّة. ربما هذه الخطوة، فعلياً، أبعد قليلاً من تسلسل الأحداث، لكن عليّ أن أضع يدي على بعض منها. فلا علم لي متى سوف أحتاجها. لكن لا يمكن أن أحفن مالاً وأذهب للصيدلية، فأنطلق مرحاً بعلبة واقيات ذكريّة. لن أتخطّى شيئاً غير ما أنا فيه، كطالب مدرسة ثانوية، ناهيك عن ذكر أني كنتُ بالغ الجُبن على اتّخاذ هذه الخطوة. قد أجرّب إحدى آلات الدفع[1] في حيّ قريب، وآه لو لمحني أحدهم متلبّساً، فسأكون مَضرَب المثل. دوّرتُ في بالي هذا المأزق، ثلاثة أيام أو أربعة، إلى ما لانهاية.

جرت الأشياء بسهولة أكثر مما توقّعتُ. سألتُ صديقاً مبكّر النضج، خبيرنا المحليّ في هذه الأمور. قلتُ له، انظر، المسألة هي... أريد واقيات ذكريّة، فماذا أفعل؟ قال بوجه بارد، لا عليكَ. سآتيكَ بعلبة كاملة. فأخي اشترى منها طناً. لا أعرف لمَ اشترى منها كثيراً، لكن خزانته تغصّ بها. ولن يتفقّد علبة. فقلتُ متحمّساً، عظيم. وأحضر الواقيات الذكريّة ثاني يوم إلى المدرسة في كيس ورقيّ. دعوته على الغداء وطلبتُ

(١) آلات الدفع: آلات للبيع، بإسقاط عملات نقدية في ثقب. (م)

منه ألاّ ينطق حرفاً. قال، لا تهتمّ. وطبعاً أهرق دمي؛ فقد أبلغ اثنين أنّي كنتُ بالسوق أشتري واقيات ذكريّة. وبلّغ هذان آخرين، فشاعت الحكاية في المدرسة، حتى وصلت مسامع ايزومي. فسألتني بعد المدرسة أن أتبعها للسطح.

سألت "هاجيمي، سمعتُ أنكَ أخذت واقيات ذكريّة من ناجيدا؟". لم تتدرّج بالضبط من لسانها كلمة "واقيات ذكريّة". ندّت عنها كاسم مرض مُعدٍ.

فاعترفتُ "ياه... بيه". وجاهدتُ للعثور على كلمات مناسبة "لا يعني حقاً أيّ شيء. فكّرتُ فقط، كما تعرفين، أنه يُستحسن أن يكون عندي منها".

"أخذتها من أجلي؟"

- قلتُ "لا، ليس تماماً. بي فضول لأعرف شكلها. لو ضايقكِ، آسف. سأردّها إليه، أو أتخلّص منها".

كنا نجلس على مقعد حجريّ صغير بركن في السطح. يبدو أن السماء ستمطر في أيّ لحظة. كنا وحدنا. كلياً. لم أكن أعلم أن السطح هادئ هكذا.

مدرستنا على رأس تلّة، فكنا نرى البلدة والبحر كلّهما. مرة سرقتُ أنا وأصحابي اسطوانات من حجرة نادي الاستماع، ورمينا بها من السطح، كالنحلة النطّاطة[1]؛ فأبحرت في قوس بديع. طارت بعيداً إلى الميناء، بشكل بهيج، كأن الحياة تنفّست فيها لحظة زائلة. لكن أخفقت إحداها في الآخر أن تُحمل جواً، فتهادت في خَرَق نزولاً إلى ملعب

(١) النحلة النطّاطة: نحلة بلاستيكية على قرص، تُدار بين اللاعبين بدفع الرسغ. (م)

التنس، حيث روّعت فجأة فتيات الصفّ الأول، وكنّ يجرّبن رمياتهنّ. ومثّل هذا لنا نوعاً من الإعاقة. كان منذ أكثر من عام، وأنا الآن هنا في الموضع ذاته، تعنّفني صديقتي عن الواقيات الذكريّة. تطلّعتُ، فرأيتُ طائراً يخطّط دائرة بطيئة في السماء. تصوّرتُ أن أكون طائراً، أمر رائع. فكلّ ما على الطيور أن تفعله، هو الطيران. ولا حاجة بها للقلق من منع الحمل.

سألتني ايزومي بصوت واهن "تحبني حقاً؟"

فرددتُ "طبعاً. طبعاً أحبكِ".

بشفتين مزمّمتين، نظرت في وجهي، مباشرة. تطلّعت في طويلاً مما جعلني أتوتّر.

قالت بعد وهلة "وأنا أحبكَ أيضاً، كما تعرف".

فكّرتُ، لكن.

قالت، بتوكيد كاف "لكن، لا حاجة بنا للاندفاع".

فأومأتُ.

"لا ينفد صبركَ. لديّ مسار خاصّ. لستُ تلك الحاذقة. وأحتاج وقتاً أكثر للتحضير لهذه الأشياء. فهل لكَ أن تنتظر؟"

أومأتُ من جديد صاغراً.

سألت "وعد؟"

"وعد".

"ألن تؤذيني؟"

"لن أؤذيكِ".

فتطلّعت في حذائها وهلة. حذاء أسود سادة بشريط حول الكاحل، دون نعل. حين أقارنه بحذائي، المصطفّ جنبه، يبدو حذاؤها دقيقاً كاللعبة.

قالت "أنا خائفة. أحسّ هذه الأيام أني حلزون دون قوقعة".

قلتُ "وأنا خائف أيضاً. أحسّ أني ضفدع بقدمين دون جلد ملتحم".

فرفعت ناظريها وابتسمت.

دونما كلمة سرنا إلى جزء ظليل من المبنى، فحضنّا بعضنا البعض، وكانت قبلة، حلزون دون قوقعة وضفدع بقدمين دون جلد ملتحم. ألصقتُها بي. فتقابل لسانانا في خفّة. أحسستُ بثدييها من تحت بلوزتها. لا تقاوم. تُغمض عينيها، وتئنّ. ملأ ثدياها الصغيران راحتَي يديّ بالضبط، كأنهما خُلقا لهذا الغرض. حلّت راحة يدها على قلبي، فصار ملمسها ودقّة قلبي كلاً واحداً. ليست شيماموتو، قلتُ لنفسي. ليس لها أن تهبني ما وهبتني إياه شيماموتو. لكن هاهي، كلّها لي، تبذل قُصارى وسعها لتهبني ما تستطيع. فأنّى لي أن أؤذيها؟

لم أفهم حينئذ. أني قد أؤذي أحداً بعنف فلا يُشفى قطّ. أنه يوجد امرؤ، لمجرّد أن يحيا، قد يدمّر آخر، فلا يستردّ الشفاء.

ـ ٣ ـ

ظللنا نخرج أنا وايزومي أكثر من عام. نخرج مرة أسبوعياً، إلى فيلم، أو ندرس في المكتبة، أو نخرج في نزهات طويلة دون مرمىً. مع ذلك، فيما يتعلّق بالجنس، فلم نمارسه قطّ طيلة هذا الوقت. وكانت تأتيني، مرّتين شهرياً، إلى بيتي، ووالداي بالخارج، فنحضن بعضنا الآخر في فراشي. ولم تخلع ملابسها قطّ. كانت تصرّ "لا تعرف متى يعود أحدهم". قد يُطلق عليها، حذرة إلى حدّ بعيد. لم تكن خائفة؛ كانت تكره أن تندفع إلى موقف محرج كامن.

فكنتُ أحضنها وملابسها عليها، أتحسّس ما أستطيع تحت لباسها.

أخبرتني، حين بانت خيبتي "على مهلك. أحتاج وقتاً أكثر. أرجوك".

فعلياً، لم أكن في مزاج من التعجّل. كنتُ محتاراً، خائب الرجا من ذلك كلّه. طبعاً، كنتُ أحبها وممتناً أنها صديقتي. فلو لم تكن معي، لظلّت سنون مراهقتي تافهة بلا لون. كانت في الأصل فتاة أمينة، مبهجة، ممّن يحبه الناس. لكن اهتماماتنا كانت في عالمين مختلفين. فلم تكن تفهم ما أقرأ من كتب، وما أسمع من موسيقى، ولم نكن نتكلّم عنها على قدم المساواة. في هذا المجال، اختلفَت علاقتي بها بصورة درامية عن تلك التي كانت مع شيماموتو.

لكن حين أجلس جنبها وأتلمّس أصابعها، ينبع فيّ دفء طبيعيّ. فأخبرها كلّ شيء. كنتُ أحبّ تقبيل جفنيها وفوراً فوق شفتيها. كما كنتُ أحبّ رفع شعرها لتقبيل أذنيها الدقيقتين، ما كان يبعث فيها دائماً نوبات قهقهة. حتى الآن، حينما أفكّر فيها، أتصوّر صباح أحد هادئاً. يوم صاف رائق، يستقبلني على الطريق. يوم أحد، حيث لا واجبات

مدرسية ترقبني، فيه كذا، فعل ما تريد. تمنحني دائماً حسّ استرخاء وراحة، في صباح أحد.

لها أخطاؤها، طبعاً. فهي جدّ عنيدة وتقنع بالقليل من شُعبة الخيال. لم تكن مستعدّة لاتّخاذ خطوة واحدة خارج العالم المريح الذي نشأت فيه. لم تتورّط في شيء، كأن تنسى كلياً ما يخصّ الطعام أو النوم. كما تحبّ والديها وتكنّ لهما احتراماً. وكانت الآراء التي تطرحها - آراء قياسية لفتاة بالسادسة عشرة أو السابعة عشرة - دون دهشة، تافهة. لكن لم أسمع منها قطّ كلاماً بذيئاً عن شخص آخر. ولا تُضجرني بكلام غَرور. تحبّني، وتشدّني. تنصتُ بعناية إلى ما أقول، فتبعث في الحبور. تكلّم ... كثيراً عن نفسي ومستقبلي، ما أريد أن أصيره، نوع الشخصية التي آمل أن أكون عليها. حكايات خرافية نرجسية لولد صغير. لكن تنصتُ بانتباه. قالت لي ايزومي "أعرف أنكَ ستكون رائعاً حين تكبر. فيكَ شيء مميّز". وكانت جادّة. فلم يُبلغني أحد مثل هذا من قبل.

كان احتضانها؛ حتى وملابسها عليها، خيالياً. ما حيّرني وخيّب أملي، مع ذلك، أني لم أستطع اكتشاف أن داخلها شيء خاصّ خُلق من أجلي. تبزّ قائمة مؤهّلاتها الممتازة قائمة أخطائها، وهي تبزّ أخطائي قطعاً، على رغم أن هناك شيئاً مفقوداً، شيئاً كان حيوياً. لو استطعت التثبّت منه، لعرفتُ أنه سينتهي بنا المآل بالنوم معاً. فليس لي أن أكبح نفسي للأبد. حتى لو استغرق ذلك زمناً، لأقنعتها أنه من محض الضرورة إليها أن تنام معي. لكن تنقصني الثقة لأواصل حتى النهاية. كنتُ مجرّد طائش بالسابعة عشر، حشو رأسه اللذة والفضول. لكن في ذلك الرأس الذي أحمله أعرف أنه لو لم تكن تريد ممارسة الجنس، فلن أجبرها على شيء. وكان عليّ أن أنتظر نافد الصبر الوقت السديد.

مع ذلك، فعلتها. حضنتُ ايزومي عارية بين ذراعيّ، مرة. ناشدتُها، لم أعد أتحمّل احتضانكِ وملابسكِ عليكِ. إن لم تريدي ممارسة الجنس معي، فهذا شأنكِ. لكني أودّ رؤية جسمكِ، أودّ احتضانكِ دون شيء عليكِ. أمر لازم، فلم يعد بي صبر.

فكّرت ايزومي وهلة، ثم قالت إنه لو كان ذلك ما أريده حقاً، فهي لا تُمانع. "لكن، عِدني، هه؟"، ونظرت إليّ بجدّية "ذلك كلّ ما ستفعله؟ فلا تفعل ما لا أريد".

وصلت بيتي صباح أحد رائقاً بديعاً، بداية نوفمبر. مع ذلك، فهو يثير القشعريرة إلى حدّ. وقد خرج والداي في عزاء امرئ من جهة عائلة أبي، وكنتُ ذاهباً فعلاً معهما. لكني اعتذرتُ بالدرس للامتحان، فبقيتُ وحدي في البيت. لا أرتقب لهما عودة إلى الليل. وجاءتني ايزومي بعد الظهر. فحضنا بعضنا الآخر في فراشي ثم خلعتُ ملابسها. أغمضت عينيها، وسمحت لي بتعريتها. لم يكن سهلاً. كنتُ كلّي أصابع، لكي أبدأ معها، وملابس البنات مزعجة. منتصف الطريق، فتحت ايزومي عينيها وا[illegible] بالمَهمّة. كان عليها لباس أزرق فاتح مزمّم عند الركبة، وحمّالة ثديين محبوكة. ربما اشترتهما خصيصاً للمناسبة؛ فإلى ذلك الحين، كانت ملابسها التحتية مما تشتريه الأمهات دائماً لبناتهنّ بالمدارس الثانوية. وحللتُ نفسي أخيراً.

حضنتُ جسمها عارياً، قبّلتُ رقبتها وثدييها. قمتُ بتمسيد جلدها الناعم، وتنشّقتُ عبيره. كان احتضان بعضنا البعض، عاريَين هكذا، خارج هذا العالم. أحسستُ إن لم ألج فيها فقد أُجنّ. لكنها كانت تدفعني بعيداً، وبحزم.

قالت "آسفة".

بدلاً من ذلك، أخذت قضيبي في فمها، وراحت تلعقه إلى الآخر. لم تفعلها من قبل. مرة ومرات تلوّى لسانها على طرف قضيبي، حتى تشوّش تفكيري وقذفتُ فوراً.

فيما بعد، حضنتُها لصقي، ألاطف كلّ بوصة من جسمها. جسمها البديع يستحمّ في نور الخريف، فرحتُ أقبّله من أعلى لأسفل. ظهيرة مجيدة فعلاً. ثم حضنا بعضنا الآخر ملتصقَين مرات، وقذفتُ ثانية وثالثة. كلّما كنتُ أقذف، تروح إلى الحمّام لتشطُف فمها.

ضحكت، "إحساس عجيب".

كنتُ أخرج مع ايزومي منذ عام، لكنه كان دون شكّ أسعد وقت قضيناه معاً. كنا عاريَين، ليس لدينا ما نُخفيه. أحسستُ أني أعرف المزيد عنها أكثر من ذي قبل، وقد أحسّت بمثله. لم نكن نحتاج كلمات أو وعوداً، بل تراكم ثابت لحقائق صغيرة.

كانت ايزومي راقدة منذ فترة، يُعشّش رأسها فوق صدري، وهي تُنصت إلى دقّة قلبي. لاطفتُ شعرها. كنتُ بالسابعة عشر، عفياً، على حافة البلوغ. والروعة هي الكلمة الوحيدة التي توصّف ما جرى.

حوالي الرابعة، ريثما تلبس لتغادر، رنّ جرس الباب. تجاهلته بداية. لم تكن عندي فكرة عمّن الطارق؛ وإن لم أردّ، فهو أياً كان قطعاً سييأس ويمضي. لكن الجرس ألحّ في الرنين. فقلتُ، يا للعنة...

سألت ايزومي، شاحبة "هل عاد والداك؟". وهي خارج الفراش، تُجمّع ملابسها في تعجّل.

"لا تقلقي. فلن يعودا مبكّرَين. ومعهما مفتاح، فلا حاجة بهما لرنّ الجرس".

قالت "حذائي!".

"حذاؤك؟"

"حذائي من داخل الباب الأماميّ".

رميتُ عليّ ملابسي، واندفعتُ نازلاً للدور السفلي، فقذفتُ حذاءها بخزانة الصالة. حين فتحتُ الباب، كانت خالتي. أخت أمّي الصغرى، وهي تسكن على بُعد ساعة بالقطار، تعودنا بين فينة وأخرى.

قالت "ماذا عساكَ تفعل؟ إني أرنّ الجرس من أبد".

فرددتُ "أسمع موسيقى بسمّاعات على رأسي، فلم أنتبه. والداي بالخارج؛ راحا في عزاء. ولن يعودا حتى وقت متأخّر ليلاً. يُفترض أنك تعرفين".

"أخبراني. لكن تصادف أن مررتُ بالحيّ المجاور، وعرفتُ أنكَ في البيت تذاكر، ففكّرتُ أن أطبخ لكَ عشاءً. تسوّقتُ تواً".

قلتُ "أستطيع عمل عشاء بنفسي. فلستُ طفلاً، كما تعرفين".

"لكني اشتريتُ كلّ شيء. وأنتَ مشغول، أليس كذلك؟ سأُجهّز العشاء وأنتَ تذاكر".

فكّرتُ، يا الله. أردتُ أن أنطوي وأموت. فكيف تعود ايزومي الآن إلى بيتها؟ في بيتي عليكَ أن تجتاز غرفة المعيشة لتصل الباب الأمامي، ثم تمرّ بنافذة المطبخ لتصل البوابة. طبعاً، قد أقدّم ايزومي كصديقة جاءت لتراني، لكن يُفترض أني أدرس بجدّ للامتحان. لو تبيّن أن عندي فتاة، فالجحيم على رأسي. ولن أستطيع أن أطلب من خالتي الاحتفاظ به سراً عن والديّ. لم تكن خالتي سيئة، لكن الحفاظ على الأسرار ليس من صفاتها المنيعة.

ريثما خالتي في المطبخ تُخرج حاجياتها من الأكياس، أخذتُ حذاء ايزومي للدور العلويّ. كانت في كامل ملابسها. فوضّحتُ الموقف.

استحال لونها شاحباً "ماذا عساي أفعل؟ ماذا لو لم أستطع الخروج من هنا؟ تعرف أنه عليّ العودة كلّ ليلة قبل وقت العشاء. إن لم، فسأقع في ورطة كبيرة".

قلتُ، أحاول أهدّئها "لا تقلقي. سيمرّ الأمر بسلام. سنتخيّل شيئاً". لكني في الحقيقة كنتُ مُكتئباً من شأن الخطوة التالية.

"ولم أجد رباط جوربي. فتّشتُ عنه في كلّ مكان".

سألتُ "رباط جوربكِ؟"

"شيء معدنيّ صغير، حوالي هذا الكُبر".

طُفتُ الغرفة، من الأرض إلى رأس سريري. لكن لم أجده.

سألتُ "آسف. ألا يمكن أن تتركي جوربكِ مفكوكاً هكذا؟"

ذهبتُ للمطبخ، حيث تُقشّر خالتي الخضروات. قالت، نحتاج زيت الخضروات، وطلبت مني الخروج لشرائه. لم أملك رفضاً، فركبتُ درّاجتي نحو محلّ مجاور. كانت الدنيا تعتم في الخارج. وفي هذه الحال، قد تظلّ ايزومي لابثة بمنزلي للأبد. عليّ أن أفعل شيئاً قبل عودة والديّ.

أخبرتُ ايزومي "أظنّ فرصتنا الوحيدة أن تتسلّلي وخالتي في الردهة".

"تظنّه سينفع؟"

"لنمنح الأمر دفعة. فليس لنا أن نجلس هكذا، ونعضّ أصابعنا".

سأنتظر بالدور السفليّ حتى تروح خالتي إلى الردهة؛ أصفّق بيديّ مرّتين. تصل ايزومي للدور السفليّ، تلبس حذاءها، وتغادر. لو تمّ هروبها على خير، فستتّصل بي من هاتف عام قريب.

تغنّي خالتي سعيدة، وهي تقطّع الخضروات إلى شرائح، تغلي حساء الميزو، تقلي بيضاً. لكن المهمّ قدر الزمن الذي يمرّ، فلم تذهب إلى الردهة. أعلم أنها تستحقّ أن توضع بقوائم موسوعة جينس للأرقام

القياسية، تحت مُسمّى "أكبر مثانة في العالم". كنتُ أوشك أن أستسلم، حين خلعت مريلتها وتركت المطبخ. مجرّد أن رأيتها في الردهة، أسرعتُ لغرفة المعيشة وصفّقتُ مرتين. نزلت ايزومي الدور السفلي على أطراف أصابعها، وحذاؤها في يدها، وبسرعة دسّته في رِجليها، ثم انسلّت بهدوء قدر الممكن من الباب الأمامي. رُحتُ إلى المطبخ للتأكّد من خروجها من البوابة الأمامية. وبعد ثانية، خرجت خالتي من الحمّام. فتنفّستُ الصُعداء.

بعد خمس دقائق، اتّصلت ايزومي. فأخبرتُ خالتي أني سأعود خلال خمس عشرة دقيقة، وخرجتُ. كانت ايزومي تقف أمام الهاتف العام.

قالت، قبل أن أتوصّل إلى كلمة "أكره هذا. لا أريد أبداً فعله ثانية".

لم أستطع لومها على غضبها وانزعاجها. قُدتها نحو حديقة قرب المحطّة وأجلستها على مقعد. وأمسكتُ يدها بنعومة. تلبس فوق سُترتها الحمراء معطفاً صوفيّ اللون. فتذكّرتُ مفتوناً ما يقع وراءهما.

سألتُ "لكنه يوم بديع. أقصد حتى ظهور خالتي. ألا تظنّين؟"

"طبعاً، استمتعتُ. كلّما أكون معكَ أقضي وقتاً رائعاً. لكن كلّ مرة، بعدها، أتحيّر".

"في ماذا؟"

"المستقبل. فبعد تركي المدرسة الثانوية، ستذهب أنتَ للجامعة في طوكيو، وأبقى أنا هنا. فماذا سيحدث لنا؟"

كنتُ قد قرّرتُ فعلياً الذهاب إلى كلية في طوكيو بعد تركي المدرسة الثانوية. فأنا أموت للخروج من مسقط رأسي، أن أعيش على هواي بعيداً عن والديّ. لم يكن مظهري العام ذلك الباهر، لكن فيما أحبّ من موادّ كنتُ أنال الدرجات العُلى دون فتح كتاب، فالالتحاق بكلية خاصة ليس شأناً كبيراً، حيث تغطّي امتحاناتها مادّتين فقط.

ذهبتُ، فلم أستطع التغيّر. فقد فعلتُ الخطأ نفسه، مرة ومرات، آذيتُ آخرين، وآذيتُ نفسي، كنوع من الاتّفاق.

وبعد بلوغي العشرين، صدمتني هذه الفكرة: ربما فقدتُ فرصة أن أصير كائناً لطيفاً. فما ارتكبتُ من أخطاء، كان جزءاً من تكرّي، جزءاً لا مهرب منه من كياني. قد وصلتُ الحضيض، أعرف.

كانت سنواتي الأربع بالكلية، مضيعة للوقت إلى حدٍّ كبير.

انخرطتُ عامي الأول في بضع مظاهرات، وقاتلتُ حتى الشرطة. كنتُ أخرج مع الطلبة المُضربين، وشوهدتُ في أكثر من تظاهرة سياسية. قابلتُ شخصيات عنيفة على الدرب، لكن قلبي لم يمِل للسياسة. ربط الأذرع مع الغرباء في المظاهرات لم يُرحني، وحين أرشق العسكر بالحجارة أسأل نفسي إن كنتُ حقاً أنا. أتعجّب، هذا ما أريد؟ لم يُقدّر لي أن أحسّ بصلابة لازمة مع من حولي. أثر العنف المعلّق في الشوارع، الشعارات القوية في النهار، ثم يخبو بريقها. أصبح الوقت الذي قضّيته مع ايزومي أثيراً في بالي. لكن دون عودة. فقد ودّعتُ هذا العالم.

معظم دروسي كانت مضجرة. لا شيء يثيرني. بعد فترة، انشغلتُ بوظيفة لبعض الوقت فلم يعد وجهي يبين إلا بالكاد في الكلية؛ الحظّ وحده سمح لي بالتخرّج في أربع سنوات. وأنا بالسنة الأولى، كانت لي صديقة عشتُ معها ستة أشهر. لكن من غير طائل. فلم يكن لديّ أيّ فكرة غائمة عما أريد من الحياة.

الشيء التالي الذي عرفته، أن موسم السياسة راح. كراية منكّسة في يوم ساكن، لأن موجات الصدمة الهائلة التي زلزلت المجتمع زمناً امتّصها عالم دنيويّ مبتذل حائل اللون.

حين تخرّجتُ، عاونني صديق لنيل وظيفة ضمن هيئة تحريرية لدى ناشر تعليميّ. فقصصتُ شعري، لمّعتُ حذائي، واشتريتُ بدلة. لم تكن شركة كبيرة، لكن وظائف الأدب كانت محدودة ومتراوحة خلال

العام، ومن ناتج درجاتي الحقيرة وصلاتي المعدومة، كان عليّ القَبول بما نلته.

وظيفة مملّة للغاية. لم تكن الشركة مكاناً رديئاً للعمل، لكن تحرير الكتب المدرسية لم يبهج أيامي وإن قليلاً. في البداية، فكّرتُ: لا بأس، سأبذل قُصارى جهدي، أحاول أن أجد فيه معنىً؛ وطيلة نصف عام عملتُ بجدّ قدر الممكن. منحته كلّ ما في طاقتي، عسى أن يحدث شيء طيب؛ لكني انسحبتُ. لا يهمّ ما أوليته أهمية، فلم تكن هذه الوظيفة لي. أحسستُ كأن نهاية حياتي تُحرق بوجهي. تتسرّب مني الشهور والأعوام واحداً بعد آخر، فتضجَر رأسي. قد أظلّ ثلاثة وثلاثين عاماً إلى التقاعد، مسلسلاً يوماً إثر يوم بمكتب، وأنا أحدّق في بروفات صفحة، أعدّ السطور، أصحّح التهجّي. أتزوّج فتاة لطيفة، أنجب بضعة أطفال، والعلاوة المعتادة مرتان سنوياً هي البقعة المنيرة وسط وجود مملّ بشكل أو آخر. تذكّرتُ ما قالته ايزومي مرة "أعرف أنكَ ستكون رائعاً حين تكبر. فيكَ شيء مميّز". تثير بي الماً كلّما أذكرها. في شيء مميّز، يا ايزومي؟ انس. لكني متأكّد أنكَ تعرف الآن. آه، ماذا بحقّ الجحيم، فلكل امرئ خطاياه.

كنتُ أؤدّي العمل الممنوح لي بطريقة آلية، وأشغل وقت فراغي بالقراءة أو سماع الموسيقى. العمل مجرد التزام مملّ، قرّرتُ، وحين لا أعمل، أستغلّ وقتي أفضل استغلال يمتع نفسي. لا أخرج للشراب مع غيري في العمل. ليس لأني لا أتوافق مع الناس. بل لأني لم أبذل جهداً للتعرّف على زملائي شخصياً. قرّرتُ أن وقت فراغي لي وحدي.

مرّت أربع أو خمس سنوات كومضة عين. كانت لي صديقات، لكن شيئاً لم يدُم. واعدتُ واحدة لعدّة أشهر، ثم بدأتُ أفكّر: ليس هذا ما

أريد. لم أجد في هذه النسوة شيئاً ينتظرني. نمتُ مع اثنتين منهن، دون جدوى. أظنّها المرحلة الثالثة من حياتي؛ اثنا عشر عاماً بين بدايتي الكلية إلى قُرب الثلاثين. سنوات خيبة وعزلة. وصمت. سنوات مجمّدة، فمشاعري محفوظة في مكان حريز داخلي.

انسحبتُ إلى نفسي. آكل وحدي، أتنزّه وحدي، أسبح وحدي، أروح حفلات السينما والموسيقى وحدي. لم أكن أحسّ بأدنى أذىً أو حزن. أفكّر غالباً في شيماموتو وايزومي، وأتساءل أين هما الآن، وماذا تفعلان. طبقاً لما أعرفه، أظنّهما تزوّجتا، وأنجبتا أطفالاً. قد أدفع أيّ شيء لأراهما، للكلام معهما، ولو ساعة. مع شيماموتو وايزومي، أكون صادقاً. أجهدتُ عقلي أتساءل كيف أعود إلى ايزومي، كيف أرى شيماموتو من جديد. تصوّرتُ كم سيكون رائعاً. لكني لم أفعل ما يُقرّبني من هذه الحقيقة. كلتاهما ضاع مني للأبد. عقارب الساعة تمضي في اتّجاه واحد. فبدأتُ أكلّم نفسي، أشرب وحدي ليلاً. وكنتُ على يقين من أني لن أتزوّج قطّ.

*

بعد سنتين من بدايتي العمل، خرجتُ مع فتاة رِجلها معطوبة. فقد تدبّر أحد زملاء العمل موعداً مشتركاً.

أخبرني على مضض "هناك خطأ في إحدى رِجليها. لكنها جذابة، شخصية باهرة. أعرف، ستحبها. لن تلحظ حتى رِجلها. فهي تجرّها قليلاً".

رددتُ "هيه، ليست مشكلة". وللحقّ، فلو لم يذكر رِجلها المعطوبة، لانطويتُ عنه. فالمواعيد المشتركة والمواعيد الأولى تُضجرني حدّ الموت. لكن حين سمعتُ عن رِجلها، لم أملك الرفض.

لن تلحظ حتى رِجلها. فهي تجرّها قليلاً.

كانت الفتاة صديقة صديقة الرجل. زميلتا مدرسة ثانوية. من نمط الجسم الصغير، بنظرات لطيفة. نظرات من نوعية جمال مُغرٍ، يذكّرني بحيوان صغير من عمق غابة لا يكاد يبين وجهه. ذهب أربعتنا للسينما صباح أحد ثم تناولنا الغداء معاً. لم تنبس بكلمة. حاولتُ استطاعتي جرّها، ولم أُوفّق. تبتسم فقط. فيما بعد، انفصلنا عن الآخرَين. فمضينا أنا وهي نتنزّه في حديقة هيبيا، وتناولنا قهوة. تجرّ رِجلها اليمنى، لا اليُسرى مثل شيماموتو. والطريقة التي تفتلها بها، أيضاً مختلفة. بينما تُدير شيماموتو رِجلها طفيفاً وهي تحرّكها للأمام، كانت هذه تدلّ بطرفها جانبياً قليلاً ثم تجرّها رأساً للأمام. لكن طريقة السير مشابهة إلى حدّ ملحوظ.

تلبس سترة حمراء بقبّة ضيقة، وجينز وحذاءاً رياضيّاً. تضع قليلاً من الماكياج، وشعرها ذيل حصان. قالت إنها في عامها الأخير بالكلية، لكنها بدت أصغر. ليس لي أن أقرّر إن كانت هادئة أم عصبية من لقاء لأول مرة. ربما ليس لديها ما تتكلّم عنه. مهما كان، فلم أشخّص تفاعلنا المبدئيّ على أنه حوار. الحقيقة الوحيدة التي استقيتُها منها أنها في كلية خاصة، تدرس الصيدلة. سألتُ "صيدلة، هيه؟ شيّق؟". وكنا في مقهى الحديقة، نتناول فنجان القهوة.

فاستحت.

قلتُ "هه، لا بأس. وهل تحرير الكتب المدرسية أكثر إثارة في العالم. العالم مليء بأشياء مضجرة. فلا تقلقي".

فكّرَت وهلة، وبعد زمن فتحت فمها "ليس شيقاً. لكن أبواي يملكان صيدلية".

"هل لكِ أن تعلّميني ما الصيدلة؟ فلا أعرف مبادئها الأولية. لا أظنّ، في السنين الستة الماضية، أني ابتلعتُ حبّة واحدة".

"صحتكَ جيدة، إذن".

فقلتُ "لا أعاني من آثار مرضية. مع ذلك، وأنا صغير، كنتُ عليلاً. آخذ كثيراً من الأدوية. كنتُ الوحيد، ويبالغ أبواي في حمايتي".

أومأت، ثم راحت تحدّق في فنجان قهوتها فترة. ومرّ زمان قبل معاودة الكلام.

بدأت "ليست الصيدلة أكثر إثارة. وهناك مليون شيء أكثر إمتاعاً من المكونات المختلفة للأدوية. ليست رومانسية، كعلم الفلك، أو درامية، مثل الطبيب. لكن، فيها شيءٌ حميم، شيءٌ أحسّ به قريباً مني. شيءٌ أرضيّ".

قلتُ "فاهم". تستطيع الكلام، على أيّ حال. فقط، تستغرق زمنا أطول من معظمنا للعثور على الكلمات السديدة.

سألتُ "عندكِ أخوة أو أخوات؟"

"أخَان أكبر. أحدهما تزوّج".

"تدرسين الصيدلة لأنكِ ستقومين بموالاة صيدلية العائلة؟"

فاستحت من جديد. وصمتت أطول. "لا أعرف. كلّ من أخوَيّ له عمل، وقد ينتهي بي الأمر لموالاتها. لكن لم يتقرّر شيء. إن لم أحسّ بحبّي لذلك، فلا بأس، هكذا قال أبي. حيث يُديرها طالما يستطيع، ثم يبيعها".

أومأتُ، منتظراً أن تُكمل.

"لكن أظنّ أني سأواليها. برِجلي هذه، يصعُب عليّ إيجاد عمل آخر".

سرنا، وقضّينا الظهيرة معاً. بمزيد من السكنات، ثم انتظار طويل من جانبها على أمل أن تُكمل. حين أسألها سؤالاً، تستحي. فا... [illegible] بحوارنا، وكان مأثرة لي في مثل هذا الوقت. أحسستُ، وأنا أجلس معها بالمقهى، بما يشبه الحنين ينبع داخلي. وبدأت تحسّ كأنها أحد أعرفه طيلة عمري.

ليس أني كنتُ جذاباً. فلم أكن. بل كانت لطيفة، واستمتعتُ بوقتنا معاً. فتاة جميلة، كما قال زميلي، دمثة. لكن ناهيك عن هذه النقاط، فحين سألتُ نفسي إن كان فيها شيء يصرعني، يئزّ بقلبي، كان الردّ لا. لا شيء.

شيماموتو فقط هي ما تفعلها بي. كنتُ أستمع إلى هذه الفتاة، وأفكّر طيلة الوقت في شيماموتو. عرفتُ أنه أمر معيب، لكن هكذا كان. إن مجرّد تفكيري في شيماموتو يُثير بي رِعدة دائماً، حتى بعد هذه السنين. إثارة محمومة طفيفاً، كأني أدفع باباً في رقّة على عمقٍ داخلي. أما السير مع هذه الجميلة برِجلها المعطوبة في حديقة هيبيا، فكان يفتقر إلى مثل هذه الإثارة، هذه الرعدة. أحسستُ نحوها بعاطفة، وسكون.

بيتها (الصيدلية، طبعاً) في كوبيناتا. أخذتها للعودة بالباص. فجلسنا جنباً إلى جنب، ولم تنبس ببنت شفة.

ناداني زميل العمل، بعد أيام، ليخبرني إن الفتاة على ما يبدو أحبتني. قال، عطلتنا قادمة، فلمَ لا نمضي أربعتنا في نزهة معاً؟ فقدّمتُ عذراً واتحنيتُ مبتعداً. ليس لأنه كان عليّ أن أُبدي اهتماماً برؤيتها من جديد والكلام معها. وقد رغبتُ حقاً في أن تُتاح لي أحياناً فرصة للكلام معها. بظروف مختلفة، قد نصبح صديقين ممتازين. لكننا بدأنا في موعد مشترك، ومسألة المواعيد المشتركة تتطلّب العثور على رفيق. فلو طلبتها

للخروج ثانية، سأتحمّل مسؤولية. وآخر ما أريد أن أؤذيها. فما كان لي غير أن أرفض.

ولم أرها قطّ ثانية.

-٦-

أثناء هذه الفترة، تبدّت لي امرأة أخرى رِجلها عرجاء في حادث غريب، لم أفهم مغزاه مطلقاً، حتى الآن. كنتُ بالثامنة والعشرين حين حدث.

وأنا في شبيا، أسير وسط حشود نهاية العام، لمحتُ امرأة تجرّ رِجلها كما اعتادت شيماموتو بالضبط. تلبس معطفاً أحمر سابغاً، تحمل حقيبة يد جلدية سوداء مفتوحة تدسّها تحت ذراعها. في رسغها الأيسر ساعة فضيّة، أكثر شبهاً بأسورة، حقاً. كلّ ما فيها ينطق بالفلوس. كنتُ بالجانب الآخر من الشارع، وحين رأيتها اندفعتُ إلى نقطة التقاطع. الشوارع زحام، مما جعلني أتساءل من أين جاء هؤلاء الناس، لكن لم أستغرق زمناً حتى لحقتُ بها. برِجلها المعطوبة، تسير ببطء نوعاً، شيماموتو بالضبط، تُدير رِجلها اليُسرى وهي تجرّها للأمام. لم أستطع صرف نظري عن المنحنى الأنيق المرسوم برِجليها البديعتين المغلّفتين في جورب، أناقة تنتجْ عن سنين طويلة من الممارسة. تبعتُها زمناً، مبقياً وراءها مسافة قصيرة. لم يكن سهلاً الحفاظ على خطوتي معها، السير بسرعة والحشود حولي. كنتُ أضبط خطوتي، أتوقّف أحياناً للتطلّع في واجهة محلّ، أو أتظاهر بالتنقيب في جيوبي. كانت تلبس قفّازين جلديَين أسودَين، وتحمل كيساً أحمر لشركة بيع مصنوعات. وكان اليوم شتوياً غائماً، لكنها تلبس نظّارة شمسية. كلّ ما تبيّنتُه، من الخلف، شَعرها البديع المشّط بعناية والملتفّ أنيقاً على طول كتفها، ظهرها مكشوف قليلاً تحت معطفها الأحمر الناعم بمظهره الدافئ. ولو أردتُ، طبعاً، أن أتبيّن إن كانت هي شيماموتو، لدُرتُ للأمام حولها غاصباً نظرة. لكن ماذا لو كانت شيماموتو؟ وماذا أقول لها - كيف أتصرّف؟ قد لا

تتذكّرني، لسبب ما. احتجتُ إلى زمن للمّ شتات نفسي. كي أستروح المزيد من أنفاسي، لتصفو رأسي.

مخاذراً ألاّ أُجاوزها، تتبّعتها زمناً طويلاً. لم تنظر مرة للوراء أو توقّفت. ولا تكاد تُحدّق حولها. يبدو أنها متوجّهة لمكان، وتودّ بلوغه بسرعة قدر المستطاع. مثل شيماموتو، تسير وظهرها منتصب ورأسها مرفوع عالياً. بالنظر إليها من الخصر لأعلى، فليس لأحد أن يتشكّك في خطأ رِجلها. فهي تسير أبطأ قليلاً من معظمنا. وكلّما تطلّعتُ فيها، تذكّرتُ شيماموتو. إن لم تكن شيماموتو، فهي توأمها، قطعاً.

شقّت المرأة الحشود أمام محطّة شبيا، وبدأت تنحدر نحو آوياما. أبطأها التلّ أكثر. قطعت قدراً من الأرض؛ فزاد تساؤلي لمَ لا تستقلّ سيارة أُجرة. حتى لمن رِجلاه سليمتان، فالطريق طويل. لكنها ظلّت تسير، وهي تجرّ رِجلها، فأتبعها على مسافة حذرة. لا شيءَ في واجهات المحالّ يخطف عينيها. تطوّح حقيبتها وكيس تسوّقها من اليمين لليسار مرات، لكن عداه تواصل المسير، دون تبديل خطوتها.

تركت أخيراً الشارع العام المزدحم. يبدو أنها تعرف المنطقة جيداً. بخطوة واحدة بعيداً عن منطقة التسوّق الصاخبة، تدخل شارعاً سكنياً هادئاً. فتتبّعتُها، أحاذر أكثر أن تلمحني وسط الحشود المتفرّقة.

قد أكون تتبّعتها أربعين دقيقة. مضينا إلى شارع خلفيّ، دُرنا منحنيات، ثم بزغنا من جديد إلى الشارع العام. لكنها لم تنضمّ إلى دفق المارّة. وكأنها خطّطت للأمر كلّه، راحت إلى مقهىً فابتاعت كعكاً وحلوى. قضّيتُ عشر دقائق أو نحوها أسير الهُوينى للوراء والأمام، ثم دخلتُ في إثرها.

كنا نذهب إلى مكان هادئ ونتكلّم. أخبرها أيّ شيء، ودون عوائق. أحسّ بثقل كلّ ما فقدته تلك السنين العشرة الماضية، السنين التي راحت كلّها، منصبّة فوقي. قبل مرور وقت كبير، استرددتُ نفسي. في حضن يوكيكو، أحسّ بالحنين، رجفة راحت من زمان تموج فوقي. وحين نتوادع، أضيع من جديد. آلمتني الوحدة، والصمت أسخطني. قبل أسبوع من عيد ميلادي الثلاثين، بعد خروجنا معاً مدّة ثلاثة أشهر، تقدّمتُ لخطبتها.

أبوها رئيس شركة تعمير متوسّطة الحجم، وشخصية معتبرة. لم ينخرط في تعليم، لكنه أنجز. فبدا مكافحاً نوعاً. ولا أزال متأثّراً بوجهة نظره الغريبة في الحياة. لم أصادف مثله. كان يعمل سائقاً في طوكيو بسيارة مرسيدس لكنه لم يُستذَلّ. حين رحتُ أراه لأطلب يد ابنته للزواج، قال فقط "لم تعودا صغاراً، وإن كنتما تحبّان بعضكما البعض، فهذا شأنكما". لم أكن صيداً كبيراً، مجرد موظف معدوم بشركة معدومة، ولم يزعجه ذلك.

ليوكيكو أخ أكبر وأخت أصغر. أخوها نائب رئيس شركة التعمير، وهو على وشك أن يتولّى زمامها. لم يكن سيئاً، لكنه ظلّ أبيه. بين الأولاد الثلاثة، كانت الصغرى، التي لا تزال في الكلية، هي الأكثر تبسّطاً؛ اعتادت شقّ طريقها بنفسها. لو توصّلنا للتفكير في هذا، فقد تكون رئيساً أفضل من أخيها.

بعد زواجنا بحوالي ستة أشهر، سألني والد يوكيكو أن آتي لأراه. سمع من زوجتي أنني لستُ سعيداً بالعمل في شركة الناشر، وأراد أن يعرف إن كنتُ أخطّط لترك وظيفتي.

قلتُ "لا مشكلة عندي في الاستقالة. المشكلة، ماذا أفعل".

فسأل "وما رأيكَ أن تجيء للعمل معي؟ سأشغلكَ بالأساسات، لن تحلّ الجبل".

قلتُ صادقاً "أعرف أني لم أُخلق لتحرير الكتب المدرسية، لكني لا أظنّ العمل في شركة تعميريناسبني، أيضاً. أقدّر عرضكَ، لكن إن لم يكن العمل يهمّني، فسينتهي الأمر كلّه أكثر إزعاجاً مما يستحق".

فردّ "أنتَ على حقّ. لا ينبغي قسر الناس على فعل ما لا يريدون". وكأنه يستبقني في الردّ. كنا نتناول مشروباً. لا يكاد ابنه يلمس الكحول، فكنا نشرب أحياناً معاً. "على فكرة، لشركتي مبنى في آوياما. تحت التأسيس، سينتهي الشهر القادم. الموقع جيد، والمكان رائع. بعيد قليلاً عن الممرّ المطروق الآن، لكن المنطقة سوف تنمو. وأفكّر، ربما، أن تفتح لكَ محلاً هناك. فهو ملك الشركة، وسآخذ المعدّل المعتاد من الأجور والإيجار. لو أحببتَ أن تراه، فسآخذكَ وقت ما تريد".

فكّرتُ في الأمر فترة. وكانت الاحتمالات آسرة.

*

وهو ما جعلني أفتتح حانة فخمة لموسيقى الجاز في بدروم بناية جديدة في آوياما. لقد عملتُ في حانة بالكلية، فكنتُ على علم بمداخل ومخارج منشأة ليلية: أنواع المشروبات، الطعام الواجب تقديمه، الموسيقى، الجوّ، الروّاد المستهدَفين، وغيره. كما تتعامل شركة حماي مع الديكور الداخليّ. لديه شركة تصميم، وقد عهد إليها بالمَهمّة. أسعارها معقولة مدهشة، وحين انتهت الحانة كانت منظراً مثيراً.

نجحت الحانة أكثر من أحلامي الخيالية، وبعد سنتين فتحتُ حانة ثانية، في آوياما أيضاً. مكان أكبر، بثلاثيّ جاز حيّ. استنفدت كثيراً من الوقت والجهد، ناهيك عن قدر كبير من المال، لكنها أصبحت نادياً

ليلياً غريباً وشعبياً. لقد أدّيتُ عملاً معقولاً لدى فرصة أُتيحت لي، فشعرتُ أخيراً أني سأرتاح فترة. ودون تطابق، حدث هذا حين ولد طفلي الأول، وكان بنتاً. في البداية اعتدتُ أن أساعد وراء البار، في خلط الأمزجة، لكن بعد فتح المكان الثاني، شغلني العمل. كان عليّ التأكّد أن كلّ شيء يمضي بسلاسة؛ التحويلات، الإيجار، إيفاء الحسابات. كنتُ أضيف بقشيش بنسين إلى القائمة. ولدهشتي، لم أكن على درجة سيئة في العمل. كنتُ أحبّ المعالجة من البداية، من نبش الأظافر إلى تخليق شيء، ثم المواصلة إلى النهاية. كانت الحانة لي، عالمي الخاصّ الصغير. فهل صادفتُ نوعية مثل هذه السعادة في قراءة الكتب المدرسية؟ لا مجال.

طيلة النهار، أقوم على رعاية نظام العمل، ثم أروح دورتين على الحانتين ليلاً، أراجع الأمزجة للتحقّق من ضبط المذاق، أراقب ردّة أفعال الروّاد، للتأكّد من أن مستخدميّ جاهزين لكدّ العمل. وأنصت للموسيقى. أردّ كلّ شهر بعضاً مما أدين به لحماي؛ فقد كنتُ أكسب أرباحاً إلى حدّ كبير. اشترينا أنا ويوكيكو شقّة من أربع غرف نوم في آوياما وسيارة BMW ٣٢٠. وأنجبتُ طفلاً ثانياً. بنت أخرى. قبل أن أعي صدمتي، كنتُ أباً لبنتَين صغيرتَين.

لدى بلوغي السادسة والثلاثين، اشتريتُ شاليه صغيراً في هاكو، وليوكيكو سيارة جيب شيروكي للتسوّق وكي تُقلّ الطفلتين في دورانها. ومن ربح الحانتين، كنتُ أستطيع فتح حانة ثالثة، لكني لم أخطّط للتوسّع. تكفيني متابعة تفاصيل الحانتين؛ ومراقبة المزيد ... تُخافني مُجهَداً. كنتُ أضحّي بوقت كاف ليمضي العمل على خير. فناقشتُ الأمر مع والد زوجتي، اقترح وضع المال الإضافيّ في الأسهم والعقارات. أخبرني،

فهو لا يستنفد وقتاً أو جهداً. لكن ليس لي علم عن سوق الأسهم أو الأراضي. قال "اترك لي التفاصيل. لو نفّذتَ ما أقول، فستمشي الأمور. فهي تغصّ بالحِيَل". وكما قال، استثمرتُ. ويمكن أن أؤكّد أني، خلال وقت قصير، جمّعتُ ربحاً ممتازاً.

سألني "والآن نجحتَ، هه؟ هناك حيلة في الاستثمار. قد تعمل مائة سنة في شركة، ولا ينتهي بكَ الحال هكذا. لكي تنجح، تحتاج الحظّ والذكاء. هذه الأسس. لكنها لا تكفي. تحتاج إلى رأسمال. ولا يكفي الرأسمال، ويداكَ مغلولتان. علاوة، تحتاج الحيلة. ودون هذه الحيلة، لن توصلكَ الأشياء الأخرى إلى مكان".

قلتُ "أظنّكَ على حقّ". عرفتُ ما يرمي إليه. إن "الحيلة" التي يتكلّم عنها، هي نظام ابتدعه. نظام معقّد متماسك لتوليد مبالغ مالية ضخمة، بتشييد شبكة علاقات هائلة، تجمع معلومات حيوية، وتستثمر تبعاً لها. ثم التسلّل عبر شبكة قوانين وضرائب، يقوم بتغيير هيئتها أثناء العملية، فيتولّد ربح مضخّم خارج حدّ القياس.

إن لم أقابل حماي، فربما ظللتُ أحرّر في الكتب المدرسية. أعيش في شقّة صغيرة حقيرة في [illegible]، وأسوق تويوتا كورونا [illegible] بمكيّف هواء معطوب. لكن الآن، وخلال زمن قصير، وجدتُ نفسي مالكاً حانتين في أرقى مناطق البلدة، أقوم بتوظيف أكثر من ثلاثين شخصاً، وأجمع مالاً أكثر مما جمعتُ في حياتي، أو حتى حلمتُ بجمعه. دار العمل جيداً، حتى مع ضغط المحاسبين، وبلغت سمعة الحانتين شأواً. لا أقول إنني الواحد الأوحد الذي يستطيع. فلو لم أتحلّ برأسمال حماي و"حيلته"، لما نهضتُ من الأرض.

لكن هذا الترتيب لم يُرحني. شعرتُ أني أتّخذ طريقاً موجزاً مخادعاً، وأني أستخدم وسائل جائرة للوصول حيث أريد. على أيّ حال، كنتُ من جيل أواخر الستينيات، وأول السبعينيات، وهو من فرّخ الحركة الطلابية الراديكالية. أول من هتف "لا" مدويّة لمنطق الرأسمالية المتأخّرة، التي التهمت أيّ تفاصيل متبقية لما بعد الحرب. كأنها حمّى نشبت بينما تقف البلاد على مفرق طرق. وهنا كنتُ نفسي، انتفختُ بالمنطق الرأسمالي نفسه، أستمتع بسماع ونتريس[1] شوبرت، وأنا مسترخ في سيارتي BMW، أرقب الإشارة أن تتغيّر عند مفرق طرق آوياما الأنيقة. شخص يعيش حياة آخر، لا حياتي. فكم مَن أدعوه نفسي كان فعلاً أنا؟ وكم لم يكن؟ هاتان اليدان المتشبّثتان بالمقود؛ كم نسبة مئوية فيهما أنسبها لنفسي؟ ومشاهد الخارج؛ كم منها حقيقيّ؟ وكلّما فكّرتُ، قلّ ما أفهمه، على ما يبدو.

ليس أني كنتُ تعساً. فلم تكن عندي شكاوى. يكي، امرأة مهذّبة، مراعية، وأحبها. حين زاد وزنها قليلاً بعد الولادة، بدأت حمية وتدريبات جادّة. قليل من الوزن لا يزعجني، فلا أزال أراها جميلة. أحبّ كوني معها، وأحبّ نومي معها. فيها شيء يريحني. لا يهم ما هو، سأصير إلى لعنة لو عدتُ إلى حياتي التي كنتُ عليها في العشرين - أيام الوحدة والعزلة. هنا أنتمي. هنا أعيش وأحتمي. هنا أحبّ وأحمي الآخرين - زوجتي وابنتيّ. أعود. كوني في هذا الموقع كان اكتشافاً غير متوقّع، تجربة جديدة تماماً.

(١) Winterreise : غنائيات ألّف موسيقاها فرانز شوبرت عام ١٨٢٧، وهي تضمّ ٢٤ أغنية، عن قصائد للشاعر الألماني فيلهلم مولر. (م)

كلّ صباح، آخذ ابنتي الكبرى إلى حضانتها الخاصة، ويغنّي كلانا طيلة الطريق مع شريط أغاني أطفال في ستريو السيارة. وقبل التوجّه إلى مكتبي الصغير الذي استأجرته قريباً، ألعب فترة مع ابنتي الصغرى. في الصيف، نقضي نهاية الأسبوع في شاليهنا في هاكون، نراقب الألعاب النارية، نجذّف في البحيرة، ونجوب التلال.

وزوجتي حامل، أقمتُ علاقات غير شرعية، لكن دون جدّية. فلم أنم مع أيّ امرأة أكثر من مرّة أو مرتين. آه، أكثرها ثلاث مرات. لم أحسّ مطلقاً بأني أقيم علاقة مع نموذج. كنتُ فقط أريد من أنام معه، والأمر نفسه مع خديناتي. أتجنّب أيّ ورطة، وأتخيّر ضجيعاتي بعناية. ربما أختبر شيئاً بالنوم معهن. أسعى لرؤية ما قد أجده فيهنّ، وما قد يجدنه فيّ.

*

بعد وقت قصير من ولادة طفلنا الأول، تسلّمتُ بطاقة من منزل والديّ. بطاقة جنازة، عليها اسم امرأة. ماتت بالسادسة والثلاثين. لم أحدّد الاسم. بطاقة عليها طابع ناجويا. ولا أعرف أحداً هناك. بعد فترة، أدركتُ من هي المرأة: ابنة عمّ ايزومي التي تسكن كيوتو. نسيتُ اسمها. منزل أبويها، كما يبدو، في ناجويا.

لم يستغرق مني طويلاً فهم أن ايزومي نفسها هي من بعث البطاقة. ليس من أحد آخر يفعلها. مع ذلك، في البداية، ظلّ السبب لغزاً. وبعد قراءته مرات، أحسستُ ببرود لا يُنسى تسرّب إليّ. فلم تنس ايزومي أبداً ما فعلتُ، ولم تغفر. ربما كانت تعيش حياة بائسة؛ ليس لامرأة مشبَعة أن تبعث هكذا بطاقة. وإن حدث، فقد تكتب كلمة تعليل أو اثنتين.

استرجعتُ ابنة العمّ وكلّ شيء عنها. غرفتها، جسمها، الجنس العاطفيّ الذي كنا نتشارك فيه. لكن الوضوح الكامل الذي تأتيني به

الذكريات قد راح، كدخان بعثرته الريح. لم أتصوّر لمَ ماتت. فليست السادسة والثلاثون عمراً غير طبيعيّ. واسمها الأخير ظلّ كما كان، ما يعني أنها لم تتزوّج - أو زُوّجت وطُلّقت.

كشفتُ المزيد عن ايزومي وأحوالها من زميل مدرستي الثانوية القديم. فقد قرأ في مجلة بروتس تحت عنوان "دليل حانات طوكيو" قصة خبرية، بها صورتي، وعلم أني أُدير حانتين في آوياما. جاء ذات مساء حيث أجلس على البار، وقال، أهلاً، كيف حالكَ؟ دون تورّط أنه انحرف عن طريقه ليراني. حدث وأنه يشرب مع بعض من رفاقه، ثم جاء يقول أهلاً.

قال "جئتُ هذه الحانة مرات. فهي قرب مكتبي. ولم يكن عندي فكرة أنكَ صاحبها. فيا له من عالم صغير".

في المدرسة الثانوية كنتُ متمرّداً، وهو ينال الدرجات العالية ويلعب رياضة، من النمط الذي تجده بمجالس الطلبة. لطيف، غير عنيف بالمرة. ودود كلياً. كان في فريق كرة القدم وأمر كبير أن تكلّمه، لكنه الآن زاد وزناً: تضاعفت ذقنه، وبدلته بقطعها الثلاث مشدودة الأزرار. أوضح، من ناتج تسلية الزبائن طول الوقت. قال، الشركات الكبرى جحيم. لديكَ ساعات إضافية، لتسلّي الزبائن، تحوّل أموالكَ؛ لو أدّيت عملاً رديئاً فقد يضربوا حصيتكَ، ولو وافقت نصيبكَ قد يرفعوكَ. لا يجب على المهذّبين التورّط في هذا النوع من العمل. مكتبه، كما يبدو، في مربّع آوياما الأول، على الشارع.

تكلّمنا عما يُتوقّع من زملاء مدرسة الكلام عنه، خاصة حين يتقابلان بعد ثمانية عشر عاماً؛ وظائفنا، الزواج، كم لدينا أطفال، ما صادفنا من معارف مشتركة. ثم ذكر ايزومي.

"هناك فتاة كنتَ تواعدها. كنتما معاً على الدوام. أوهارا، نحو ذلك".

قلتُ "ايزومي اوهارا".

فقال "صحيح، آه. ايزومي اوهارا. تعرف، قابلتها مصادفة من وقت قصير".

فسألتُ، مرتاعاً فجأة "في طوكيو؟"

"لا، ليس في طوكيو. في تويوهاشي".

قلتُ، بدهشة أكبر "تويوهاشي؟ تقصد تويوهاشي بمقاطعة ايشي؟"

"صحيح".

"لا أفهم. لماذا قابلتَ ايزومي في تويوهاشي؟ ماذا بحقّ الله تفعل هناك؟"

يبدو أنه لمح شيئاً عصياً لم يستسلم في صوتي. فغامر "لا أعرف. رأيتها هناك. لا مزيد لأقوله. لم أكن حتى على يقين كامل أنها هي".

طلب ويسكي وايلد تركي بالثلج. وكنتُ أشرب فودكا حارقة.

"لا يعنيني إن كان هناك مزيد لتقوله أم لا. أريد أن أعرف".

فتردّد "طيب.. ما أعنيه، أحسّ أحياناً وكأنه لم يحدث. وهو حسّ عاثر. فكأني كنتُ أحلم. لكنه كان واقعاً، تعرف؟ من الصعب التفسير".

فسألته "لكنه حدث، هه؟"

قال "نعم".

"إذن قل لي".

فأومأ مستسلماً، ثم تناول رشفة من الوايلد تركي.

"ذهبتُ إلى تويوهاشي، حيث تعيش أختي الصغرى هناك. كنتُ في رحلة عمل إلى ناجويا، واليوم جمعة، فقرّرتُ قضاء الليلة في شقّتها. وهناك قابلتُ ايزومي. كانت بمصعد بناية أختي. أخذتُ أفكّر: ياه، هذه المرأة صورة طبق الأصل من بنت اوهارا. ثم فكّرتُ: لا أظنّ، ليست هي.

لا أظنّها من قابلتُ في مصعد بناية أختي، في تويوهاشي من بين الأماكن كلّها. وجهها مختلف عن ذي قبل. لا أفهم، لماذا أدركتُ فوراً أنها هي. غريزة، كما أخمّن".

"لكنها ايزومي، هه؟"

فأومأ "صدف أنها تسكن بطابق أختي نفسه. فخرجنا معاً، سرنا في الممرّ بالاتّجاه نفسه. راحت إلى شقّة قبل بابين من باب أختي. فثار فضولي، وتمعّنتُ في اسم اللوحة على بابها. مكتوب، اوهارا".

"وهل لاحظتكَ؟"

فهزّ رأسه "كنا بالفصل نفسه، لكننا لم نكلّم بعضنا الآخر قطّ. علاوة على أني الآن أزيد أربعين رطلاً. فلن تعرفني أبداً".

تساءلتُ "لكن، هي ايزومي حقاً؟ فاوهارا اسم شائع بديع. ربما هناك من يشبهها".

"سألتُ الشيء نفسه، استفهمتُ من أختي. أيّ شخص اوهارا هذه. فأرتني أختي قائمة السكّان. تعرف، يعطونهم هذه القوائم حين يقسّمون كلفة إعادة طلاء أو شيء من هذا القبيل. عليها أسماء السكّان. وهي ضمنها: ايزومي اوهارا. مع ايزومي في كاتاكانا، لا شخصيات صينية. فلا يوجد كثير لهم التركيب نفسه، طبعاً؟"

"لأيّ سبب، لا تزال عزباء".

قال "أختي لا تعرف. واكتشفتُ أن ايزومي اوهارا هي المرأة اللغز في البناية. فلا يتحدّث معها أحد. لو قلتَ لها أهلاً وأنتَ تعبر الممرّ، فستتجاهلكَ. ولا تردّ الجرس حين ترنّ. لا يمكن التصويت بأنها الأكثر شعبية في البناية".

فحركتُ، هازاً رأسي "قطعاً، ليست هي. ايزومي ليست هكذا. فهي ودود دائماً، مبتسمة دائماً".

قال "آه. أنتَ على حق. هي شخص آخر. شخص بالاسم ذاته. لنغيّر الموضوع".

"وهل تعيش ايزومي اوهارا هناك وحيدة؟"

"أظنّ. فلم ير أحد رجلاً يدخل إليها. لا دليل عمّا تفعله لتقوت نفسها. لغز كامل".

"طيب، ما رأيكَ؟"

"في ماذا؟"

"فيها. في ايزومي اوهارا، التي قد تكون وقد لا تكون شخصاً بالاسم ذاته. فأنتَ رأيتَ وجهها بالمصعد. ماذا رأيتَ؟ هل تبدو بخير؟"

فكّر، ثم ردّ "بخير، على ما أظنّ".

"ماذا تقصد، بخير؟"

هزّ كأسه الويسكي؛ فأصدر صلصلة. "طبيعية، كبرت قليلاً. عموماً، هي بالسادسة والثلاثين. أنتَ وأنا أيضاً. يبطئ أيضُ خلايانا. وقد زدتَ بضعة أرطال. فلن تظلّ طالب الثانوية للأبد".

قلتُ "أوافقكَ".

"لماذا لا نغيّر الموضوع؟ فهي شخص آخر".

تأوّهتُ. مريحاً ذراعيّ على البار، أتطلّع في وجهه. "انظر، أريد أن أعرف. عليّ أن أعرف. قبل ترك المدرسة الثانوية، انفصلنا أنا وايزومي. نتيجة أمر معيب. فقد احتلّتُ وآذيتها، كثيراً. ومنذئذ لم ألق طريقة أعرف بها ما آلت إليه. لا فكرة عندي أين هي أو ماذا تفعل. فخبّرني الحقيقة الصرفة. هل هي ايزومي، هي أم لا؟"

فأومأ "لو صممتَ على هذا، فإليكَ. نعم، هي بالتحديد، هي. آسف أن أقولها".

"إذن، بأمانة، كيف حالها؟"

صمت وهلة. ثم "أولاً، أريد منكَ أن تدركَ شيئاً، هه؟ كنتُ معها بالفصل ذاته، كما كنتُ أعتبرها جذابة جداً. فتاة لطيفة. شخصية لطيفة، حلوة. ليس جمالها صاعقاً، كما تعرف، لكنها مغرية. هل كنتُ على حق؟"

فأومأتُ.

"تريدني فعلاً أن أدلّكَ على الحقيقة؟"

قلتُ "هيا".

"لن تغفر لي".

"لا أهتمّ. فقط قلها".

جرع ملء فمه ويحكي "كنتُ أغار منكَ، لأنكَ معها دائماً. وكنتُ أريدها صديقتي. الآن أدع ذلك كلّه، كما يُفترَض. لن أسلوها قطّ. فوجهها محفور بذاكرتي. هذا هو السبب، فحين قابلتها في غير الزيّ الأزرق داخل مصعد، حتى بعد ثماني عشرة سنة، عرفتها فوراً. وتوصّلتُ للآتي: ليس هناك ما يدعوني للإساءة إليها. كانت صدمة لي أيضاً، كما تعرف. لم أكن أريد الاعتراف بحقيقة ما رأيتُ. فدعني أبيّن لكَ الأمر هكذا: لم تعد جذّابة".

فعضضتُ لساني "ماذا تقصد؟"

"معظم أطفال البناية يخشونها".

ردّدتُ "يخشونها؟". ونظرتُ إليه، غير فاهم. ربما اختار كلمات خطأ.

"بماذا تقصد ـ يخشونها؟"

"هيه، لمَ لا نتوقّف الآن؟ فلا أريد حقاً اقتحام الموضوع".

"هش. انتظر لحظة - ماذا تفعل؟ هل تقول شيئاً للأولاد؟"

"لا تقول شيئاً لأحد. كما قلتُ".

"إذن يخشون وجهها؟"

قال "آه".

"بها ندبة أو شيء؟"

"لا ندوب".

"إذن، فيم يخشونها؟"

أنهى كأسه الويسكي، فوضعها على البار. راح يتطلّع في طويلاً. بدا سكران، أكثر منه مرتبكاً. لكن شيئاً آخر في تعبيراته. تلمّستُ أثراً في وجهه كمن عاد للمدرسة. رفع بصره وهلة، وكان يحدّق على مسافة مثل من يرقب جدولاً يدفُق ذاهباً آيباً. وتحدّث، أخيراً "ليس لي أن أشرح جيداً؛ كما لا أريد. فلا تطلب مني المزيد، هه؟ عليكَ أن تراها بعينيكَ لتفهم. فمن لا يراها عياناً لن يفهم".

أومأتُ، دون مزيد، وأنا أرشف الفودكا الحارقة. هدأت نبرته، لكني أعرف أنه لن يضيء أمامي نقطة عمياء، مقابل أيّ استفسارات من جهتي.

بدأ الكلام عن سنتيه اللتين قضّاهما في عمل بالبرازيل. قال، لن تصدّق، التقيتُ هناك مصادفة أحد زملاء دُفعتي في ساو باولو، من بين الأماكن كلّها. يعمل مهندساً في تويوتا.

فكـ[illegible] عني كلماته. حين غادر، خبطني بكتفي "آه، إن السنين تغيّر الناس كثيراً، صحيح؟ لا أعرف ما دار بينكَ وبينها. لكن مهما كان، فليس هذا خطأكَ. بشكل أو آخر، كلّ امرئ يمرّ بمثل هذه

التجارب. حتى أنا. دون مزاح. مررتُ بأمرِ عينه. ولا يحول شيء دون الوقوع فيه. وحياة شخص آخر هي، في النهاية، حياته هو. وليس لكَ أن تتحمّل مسؤولية. كأننا نعيش في صحراء. عليكَ أن تعتاد الحكاية. فهل رأيت فيلم ديزني "بالمدرسة الابتدائية - الفلاة الحية؟"

جاوبتُ "نعم".

عالم شبيه بالضبط. فالمطر يهطل، والأزهار تينع. ودونما مطر، تذوي. كما أن الحشرات تأكلها السحالي، والسحالي تأكلها الطيور. في النهاية، تموت جميعها. تموتُ، وتجفّ. يموتُ جيل، ويحلّ آخر محلّه. هكذا الأمور. طرق مختلفة للحياة. وطرق مختلفة للموت. في النهاية، لا فرق. فكلّ ما يبقى فلاة".

عاد إلى بيته، وجلستُ وحدي بالحانة، أحتسي. بعد غلق الحانة ليلاً، بعد رواح الروّاد جميعاً، بعد أن ترك العمّال المكان ورجعوا بيوتهم، جلستُ هناك وحدي. لم أكن أريد العودة إلى بيتي فوراً. فاتّصلتُ بزوجتي، بلّغتها عندي مسألة في العمل، سأعالجها، وقد أتأخّر. أطفأتُ الأنوار، وجلستُ بالعتمة، أشرب الويسكي. هناك مشاقّ في تكسير ثلج، فأخذتُ أشرب مباشرة.

كلّ امرئ يواصل اختفاءه. وبعض الأشياء تتلاشى، كأنها تُنتزَع. وتشحُب أخرى، بطيئاً في ضباب. فكلّ ما يبقى فلاة.

حين غادرتُ الحانة، قبل الفجر، كان مطر خفيف يرشّش شارع آوياما العام. كنتُ مستنفَداً. دون صوت، ينقع المطر سقوف البنايات الطويلة، وهي تقف هناك مثل شواهد أضرحة كبيرة. فتركتُ سيارتي في موقف الحانة، وسرتُ عائداً. وأنا في طريقي، جلستُ على درابزين أشاهد غراباً ضخماً ينعب فوق شارة مرور. بدت الشوارع فجراً بالرابعة،

رثّة بل فاحشة. ظلّ من العفن والتحلّل كامن في مكان، وأنا جزء منه. مثل ظلّ يحترق في حائط.

ـ٨ـ

بعد عشرة أيام أو نحوها من ظهور القصة الخبرية باسمي وصورتي في بروتس، زارتني في الحانة معارف قديمة، لتراني. زملاء تخرّج ومدرسة ثانوية. حتى ذلك الوقت، كنتُ أتساءل من على وجه البسيطة يقرأ هذه المجلاّت المكوّمة لأعلى في المكتبات. لكن ما إن صُوّرتُ بإحداها، حتى اكتشفتُ أن ناساً أكثر مما أتخيّل يدمنون هذه المجلاّت. صالونات الحلاقة، البنوك، المقاهي، القطارات، كلّ مكان متخيّل، لدى الناس مجلات يفتحونها أمامهم، كالمجانين. يخشون ألاّ يكون لديهم ما يقتلون به وقتهم، فيلتقطون أياً ما يحدث ليكون بين أيديهم. وصُدمتُ بهذا.

عموماً، ليس لي أن أقول إن أكثر الأشياء إثارة بالعالم هو رؤية وجوه الماضي. ليس لأني لم أكن أحبّ الكلام معهم. فهو يجعلني في مزاج حنين لطيف. يبدون سعداء لدى رؤيتي. لكني لا أتحمّل بصراحة ما يطرحون من موضوعات. كيف تغيّرت بلدتنا، وما صار إليه الزملاء الآخرون. وكأنه يعنيني. لقد انتقلتُ بعيداً عن مكانهم وزمانهم. كما أن كلامهم يثير ذكرياتي عن ايزومي. في كلّ ذكر لبلدتي أتصوّرها وحيدة، في تلك الشقّة الكئيبة. لم تعد جذّابة، كما قال صاحبي. الأولاد يخشونها. لم أعد أتحمّل هذين السطرين حين ينطلقان من دماغي. والحقيقة أن ايزومي لم تغفر لي قطّ.

وددتُ فحسب دفع الحانة بدعاية مجانية محدودة، لكن بعد وقت قصير من ظهور المقال، بدأتُ أندم جدّياً على سماحي للمجلة أن تكتب تقريراً عنها. وآخر ما كنتُ أريده أن ترى ايزومي المقال. فكيف تحسّ إن

رأتني أعيش حياة سعيدة، نشطة، مرحة، وهي لا يبدو أنها برِئت من ماضينا؟

مع ذلك، وخلال شهر، تلاشت زُمر الصحاب القدامى. أظنّه أمر لصالح المجلّات: فلديكَ لحظة شهرة، ثم تخبو! وتُنسَى. فندّت عني آهة ارتياح. على الأقلّ لم تظهر ايزومي. لم تكن من مشتركي بروتس، على أيّ حال.

لكن وراءها بأسبوعين، بعد نسيان ضجّة المقال، ظهر آخر الصحاب. شيماموتو.

*

كان مساء أول اثنين من نوفمبر. هناك، في روبين نست[1] (لقب حانة الجاز، اسم لحن قديم أحبه)، جلست، ترشف بهدوء من كأس ديكري. كنتُ إلى البار ذاته، أمامي ثلاثة مقاعد، غافلة كلياً عن حقيقة أنها هي. لاحظتُ امرأة جميلة تدلف إلى الحانة، وهذا كلّ شيء. رائدة جديدة؛ سجّلتُ في ذهني. لو رأيتها سابقاً، لتذكّرتها؛ فمن تنتظر ظهوره. لا تشرب النسوة وحيدات بالحانة. يبدو أن بعض العزباوات يتوقّعن من الرجال التحرّك نحوهن؛ ويبدو بعضهن الآخر تائقات أكثر. أستطيع دائماً فرز أيّها من هؤلاء والعكس. لكن امرأة بهذا القدر من الجمال لا تُقدم على الشراب وحيدة. امرأة كهذه ليست النمط الذي يرتجف بخطوة الرجال إليهن. فهي لن تُسبّب لهن سوى الألم.

لذلك لم أُولها كبير اهتمام. تمعّنتُ فيها، طبعاً، حين دخلت في البداية، وكنتُ أحدّق فيها بين حين وآخر. تضع لمسة ماكياج فقط،

(١) Robin Nest: تعني، عش العصفور. (م)

وهيئتها باذخة؛ فستان حرير أزرق، وسترة كشمير محبوكة لونها بُنيّ خفيف. سترة بهيئة رقيقة كقشرة بصلة. وضعت على البار حقيبة يد تلائم فستانها. لم أخمّن عمرها. كلّ ما أستطيع قوله إنها، في العمر المناسب.

جمالها يُبهر أنفاسكَ، لكني لم أظنّها نجمة سينما أو موديل. تتردّد هذه الأنماط على حانتي، لكنكَ تميّزهن دائماً من حالة الاستعراض العام، حيث تتشبّث في الهواء من حولهن رجولة بغيضة. لكن هذه مختلفة. فهي مرتاحة كلياً، مسترخية على الآخر، ولا يعنيها ما حولها. أراحت ذقنها على يديها فوق البار، مستغرقة بموسيقى ثلاثيّ البيانو، ترشف طول الوقت مزيجها كالتي تستطعم عبارة محكمة قبل اللفظ. كلّ عدّة دقائق، تحدّق نحوي. أحسّ بها، فيزيقياً. ومع أني تجاوبتُ، يبدو أنها لم تكن تنظر إليّ حقاً.

كنتُ في نياقتي المعهودة؛ بدلة لوسيانو سوبراني، قميص آرماني وربطة عنق. مع حذاء روسيتي. صدّق أو لا تصدّق، لم أكن ممن يقلقهم الملابس. قاعدتي الأساسية أن أنفق الحدّ الأدنى عليها. خارج العمل، جينز وسترة أمر رائع. كنتُ أملك فلسفة محدودة لأداء العمل: ألبس الملابس التي أريد لروّادي أن يلبسوها. واكتشفتُ، من هذا، أنني جعلتُ مستخدميّ أكثر أهبة للعمل على أطراف أصابعهم، وخلقتُ نوعاً من المزاج السامي الذي أهدف إليه. كلّما آتي الحانة، أتأكّد من أنني ألبس بدلة وربطة عنق لطيفتين.

أجلس هناك، إذن، أراجع الأمزجة للتأكّد من الخلطة الصحيحة، عيني على الروّاد، كما أنصت لثلاثيّ البيانو. في البداية تمتلئ الحانة نوعاً، لكن المطر يبدأ فيما بعد التاسعة فتتراجع أعداد الروّاد. قرب العاشرة تنشغل حفنة موائد فقط. لكن المرأة لا تزال على البار، وحدها

مع كأس ديكري. بدأَت تثيرُ عجبي أكثر. ربما لا تنتظر أحداً. أكثر من مرة، تتطلّع في ساعتها أو إلى المدخل.

أخذت حقيبتها في النهاية، ونزلت من مقعدها العالي. قرابة الحادية عشرة. لو تريد أن تستقلّ مترو الأنفاق عائدةً، فقد حان الرواح. وببطء، من دون قصد، شقّت إليّ طريقاً، ثم جلست في المقعد المواجه. تنشّقتُ نفحة عطر واهنة. استقرّت بالمقعد، أخرجت علبة سالم من حقيبتها، فوضعَت سيجارة في فمها. لمحتُ ذلك من طرف عيني.

قالت لي "يا لها حانة بديعة".

فرفعتُ بصري من كتاب أقرأ فيه، ونظرتُ إليها في غير ما فهم. عندئذ، صدمني شيء - بعنف. كأن الهواء وقع بثقله، فجأة، على صدري.

قلتُ "شكراً". تعرف أني مالكها. "يسعدني أنها أعجبتكِ".

"كثيراً، جداً". تنظر في عمق عينيّ، وتبتسم. ابتسامة رائعة. شفتان مفروقتان، واسعتان وصغيرتان، وتضمّ الخطوط [illegible] بزاويتي عينيها. أثارت ابتسامتها دفين الذكريات - لكن، من ماذا؟

"كما أعجبتني موسيقاكم"، وأشارت لثلاثيّ البيانو. طلبت "عندكَ ولاّعة؟"

لم يكن معي كبريت، ولا قدّاحة. فناديتُ الساقي ليحضر كبريتاً من البار. وأشعلتُ لها سيجارة.

قالت "شكراً".

فنظرتُ إليها مباشرة. وفهمتُ، أخيراً.

شهقتُ "شيماموتو".

قالت بعد وهلة، ونظرة مرح بعينيها "استغرقتَ طويلاً، فظننتُ أنكَ لن تلاحظ".

جلستُ هناك أبكم، أحدّق فيها كمن يمثل في حضرة آلة تقنية عالية، دقيقة، سمع عنها مجرد شائعات. شيماموتو فعلاً، أمامي. لم أُرد التعلّق بهذه الحقيقة بعد. كنتُ أفكّر فيها من زمن طويل، طويل. ولم أكن موقناً أني سأراها ثانية.

قالت "تعجبني بدلتكَ. على الموضة بالضبط".

أومأتُ ساكتاً. فلم يحن للكلام أن يتدفّق.

"تعرف، يا هاجيمي؟ أنتَ أشدّ وسامة مما كنتَ. وبنيانكَ أفضل بكثير".

توصّلتُ، أخيراً، أن أقول "أسبح كثيراً. بدأتُ عند تخرّجي، وأسبح منذئذ".

"تبدو السباحة باعثة للمرح. أظنّ ذلك دائماً".

قلتُ "صحيح. لكن لو دُرّبت، يستطيع الجميع التمرّن، تعرفين". بمجرد أن غادرت الكلمات فمي، تذكّرتُ رِجلها. فسألتُ نفسي، عن ماذا بحقّ الجحيم أتكلّم؟ سكران، أتلمّس ما أقول. لكن الكلمات تراوغني. نقّبتُ جيوب بدلتي عن علبة سجائر. ثم تذكّرتُ، إني انقطعتُ عن التدخين من خمس سنوات.

راقبتني شيماموتو، صامتة. رفعت يدها، تطلب كأس ديكري آخر، وتمنح أعظم ابتسامة. ابتسامة جميلة، حقاً. ابتسامة، تجعلكَ تلفّ الصورة كلّها في مكان أمين.

قلتُ "تبدين حزينة، كما أرى".

"نعم. دائماً هكذا. لديكَ ذاكرة جيدة".

"أذكر كلّ شيء عنكِ تقريباً: طريقة تسنين أقلامكِ الرصاص، عدد مكعّبات السكّر في شايكِ".

"كم؟"

"اثنان".

فضيّقت عينيها قليلاً، وهي تنظر إليّ.

بدأت "قل لي شيئاً، هاجيمي. ماذا حدث من ثماني سنوات - لماذا تتبّعتني؟"

تنهّدت "لم أتبيّن أنه أنتِ أم لا. طريقة سيركِ هي بالضبط. لكن هناك شيء، أيضاً، لم يعد شبيهاً بكِ. فتبعتكِ، لأني لم أتأكّد. تبعتكِ، ليست الكلمة المناسبة. كنتُ فقط أتحيّن اللحظة المناسبة للكلام معكِ".

"ولمَ لم تفعل؟ لماذا لم تأت مباشرة وترى إن كنتُ أنا؟ كان ذلك أسرع".

فرددتُ "لا أعرف. هناك ما أعاقني. لم يكن صوتي يطلع".

عضّت شفتها قليلاً "لم ألحظ عندئذ أنه أنتَ. وكلّ ما فكّرتُ فيه أن شخصاً يتبعني، فخفتُ. حقاً. ارتعبتُ. لكن بمجرد أن دخلتُ الأجرة ونلتُ فرصة هدوء، خطر لي. هل ذلك هاجيمي؟"

"شيماموتو، نلتُ شيئاً وقتئذ. لا أعرف كنه العلاقة بينكِ والرجل، لكنه أعطاني -".

وضعت إصبعها السبّابة على شفتيها. وهزّت رأسها خفيفاً. كمن يقول، لماذا نتكلّم عن ذلك الآن، هه؟ أرجوكَ، لا تجلب له سيرة.

سألت، لتُغيّر الموضوع "تزوّجتَ؟"

رددتُ "ومعي طفلان. بنتان. لا تزالان صغيرتين".

"جميل. أظنّ البنات تناسبكَ. لا أستطيع إيضاح السبب، لكن هكذا".

"عجيب".

فابتسمت "آه - نوعاً. لكن، على الأقلّ، ليس عندكَ طفل وحيد".

"لم أخطّط. لكنه صار".

"بماذا تحسّ؟ أتساءل. وعندكَ بنتان".

"بصراحة، غريب قليلاً. أكثر من نصف أطفال حضانة ابنتي الكبرى وحيدون. لقد تغيّر العالم مُذ كنا صغاراً. أصبح الوحيدون في المدينة القاعدة، لا الاستثناء".

"ولدنا أنا وأنتَ بوقت متقارب".

قلتُ "ربما. تسحّب العالم أقرب إلينا. حين أراهما، أحياناً، يلعبان معاً في البيت، أستغرب. طريقة فُضلى لتربية الأولاد. وأنا صغير، لعبتُ وحدي، دائماً. ظننتُها الطريقة التي يلعب بها الجميع".

اجترح ثلاثيّ البيانو لحن "كركوفادو"[1] فصفّق الروّاد. كما هو دائماً، والليل يهبط، يصبح عزف الثلاثيّ أكثر دفئاً، أشدّ حميمية. بين الوصلات، يحتسي عازف البيانو نبيذاً أحمر، ريثما يدخّن عازف الباص.

كانت شيماموتو تشرب المزيج. "تعرف، هاجيمي، لم أكن متأكّدة على الإطلاق في البداية إن كان عليّ المجيء هنا. تعذّبتُ ما يقرُب من شهر. اكتشفتُ أن لكَ حانة، من مجلة أتصفّحها. ظننتُ هناك خطأ أكيد. فأنتَ، بين الناس جميعاً، تُدير حانة! لكنه اسمكَ، وصورتكَ. هاجيمي القديم البديع من جيراننا القدامى. فأسعدني أن أراكَ ثانية، حتى لو كان في صورة. لكني لم أتأكّد إن كان لقاؤكَ شخصياً

(١) corcovado: اسم جبل جنوب شرقيّ البرازيل، عليه تمثال للسيد المسيح بطول ٣٨ متراً. والاسم هنا يشير إلى أغنية للمطرب انطونيو كارلوس جوبيم، تتعلّق بالجبل نفسه. (م)

فكرة جيدة. أفضل لنا ألاّ نلتقي. فمعرفة أنكَ سعيد، وأعمالكَ تمضي بخير، كفاية".

كنتُ أسمعها، في صمت.

"لكني عرفتُ مكانكَ، بدا أنه خسارة ألاّ آتي مرة، على الأقلّ، لأراكَ. وها أنا ذا. جلستُ هناك أراقبكَ. وفكّرتُ، إن لم يلحظني، فسأرحل دون مزيد. لكن لم أتحمّل. داهمتني ذكريات كثيرة، فكان عليّ أن أرحّب، أهلاً".

سألتُ "لماذا؟ أعني، لماذا ظننتِ أنه يُفضّل ألاّ تقابليني؟"

تتبّعَت حرف كأسها بإصبعها، مستغرقة الفكر. "ظننتُ لو قابلتكَ، أن تودّ أن تعرف كلّ شيء عني. هل تزوّجتُ، أين أعيش، إلام وصلتُ، هذا القبيل. أنا على حقّ؟"

"سأستبين هذه الأشياء، قطعاً".

"طبعاً".

"لكنكِ تفضّلين السكوت عنها؟"

ابتسمت بارتباك، وأومأت. لديها مليون تنويعة للابتسامة. "آه. لا أريد الكلام عنها. فلا تسألني السبب، أرجوكَ. فقط، لا أريد الكلام عن نفسي. أعرف، غير طبيعيّ، كأني صاحبة مزاج، أحاول أن أكون امرأة ليل غامضة أو هكذا. هو سبب تفكيري أنه لا يجب أن أراكَ. لا أودّ أن تظنّني قد صرتُ امرأة غريبة مغرورة. ذلك أحد سببين أني لم أكن أريد المجيء هنا".

"والآخر؟"

"لم أكن أريد أن يخيب أملي".

فنظرتُ إلى الكأس في يدها. نظرتُ إليها مباشرة، شعر بطول الكتف، وإلى شفتيها النحيلتين بديعتَي القوام. إلى عينيها الداكنتين العميقتين فيما لا نهاية. خطٌّ رفيع فوق جفنيها تسبّب أن تبدو مستغرقة. وجعلني هذا الخطّ أتصوّر أفقاً شارداً.

"كنتُ أحبكَ، ولم أكن أريد لقاءكَ حتى لا يخيب أملي".

"وهل خيّبتُ أملكِ؟"

فهزّت رأسها طفيفاً. "كنتُ أراقبكَ من بعيد. فبدوتَ في البداية شخصاً آخر. أكبر في هذه البدلة. وحين تطلّعتُ أقرب، تبيّنتُ هاجيمي الذي اعتدتُ عليه. هل تعرف أن حركاتكَ لم تتغيّر تقريباً منذ كنتَ بالثانية عشر؟"

"لا أعرف"، وحاولتُ أن أبتسم، ففشلتُ.

"كيف تُحرّك يديكَ، عينيكَ، كيف تحدّد بأطراف أصابعكَ شيئاً على الدوام، كيف تعقد حاجبيكَ كالمستاء من شيء - لم تتغيّر في كثير. تحت بدلة آرماني، هاجيمي القديم نفسه".

صحّحتُ "ليست آرماني، القميص وربطة العنق آه، لكن البدلة لا".

فابتسمَت.

بدأتُ "شيماموتو، تعرفين، وددتُ أن أراكِ من زمن طويل. أتكلّم معكِ. لديّ الكثير مما أريد أن أخبركِ به".

قالت "وأنا وددتُ أن أراكَ أيضاً. لكنكَ لم تأتِ. تعرف؟ بعد ذهابكَ لنيل المتوسّطة في بلدة أخرى، انتظرتكَ. فلم تأتِ؟ كنتُ في بالغ الأسى. ظننتُكَ كوّنت صداقات جديدة في بيتكَ الجديد، ونسيتَ كلّ شيء".

طحنت شيماموتو سيجارتها بالطفاية. هناك طلاء واضح على أظافرها. كأنها، إلى حدّ غريب، شبيهة بمحفورة يدوية، صقيلة لكن أقلّ من الواقع.

قلتُ "كنتُ خائفاً، ذلك السبب".

فسألت "خائف؟ خائف من ماذا؟ مني؟"

"لا. ليس منكِ. خفتُ الرفض. كنتُ لا أزال ولداً. لم أتخيّل فعلاً أنكِ تنتظرينني. ارتعبتُ من أنكِ قد ترفضينني. أن آتي إلى بيتكِ لأراكِ وأنكِ قد تتبرّمي. فانقطعتُ عن المجيء. فكّرتُ أني قد أُطعَن، ففضّلتُ المضيّ في حياتي مع ذكريات سعيدة، حين كنا معاً".

أمالت رأسها طفيفاً، ولفّت جوزة زهرة في يدها. "ألا تسير الأمور بيُسر؟"

"لا، وحقّكِ".

"لم ننوِ أن نكون أصدقاء لفترة طويلة. أمضيتُ دربي كلّه، من المتوسّطة، للثانوية، حتى الكلية، دون أن أتّخذ صديقاً. كنتُ وحدي دائماً. تصوّرتُ قدر الروعة لو كنتَ إلى جانبي. وإن لم تكن، فعلى الأقلّ نكتب لبعضنا البعض. كان على الأشياء أن تتغيّر كثيراً. يجب أن أعيش حياة أفضل". وصمتت وهلة. "لا أعرف لماذا، لكن بعد ذهابكَ لنيل المتوسّطة، انحدرت الحياة المدرسية. مما جعلني أنغلق على نفسي أكثر. دائرة أثيمة، كما قد تسمّيها".

فأومأتُ.

"حتى المدرسة الابتدائية كنتُ بخير، وبعدها أمر فظيع. كالمحبوس في بئر".

أعرف هذا الشعور. كما أحسستُ ثماني سنوات من حياتي، ما بين الكلية والزواج من يـكـيـكـو. شيء واحد يمضي خطأ، وتتداعى بطاقات البيت كلّه. ليس أمامي غير وسيلة للخلاص من المحنة. أن يأتي أحد ليـ..حـ.اءَ منها.

"عندي رِجلي المعطوبة، فلا أستطيع فعل ما يفعله الآخرون. أقرأ فقط، وأنطوي على نفسي. ثم صمدتُ. ظاهرياً، أقصد. فانتهى الحال بمعظم الناس إلى الظنّ أني امرأة متعجرفة لولبية. وربما ذلك ما صرتُ إليه".

قلتُ "آه، أنتِ مذهلة". وضعَت سيجارة أخرى بين شفتيها. ضربتُ عوداً وأشعلتها.

سألت "تظنّ حقاً أني جميلة؟"

"آه. لكن يجب أن تسمعي ذلك طول الوقت".

فابتسمت شيماموتو. "ليس بالضبط. فلستُ رائعة الوجه، فعلاً. لكن يسعدني قولكَ هذا. لسوء الحظّ، لا تحبّني النسوة الأخريات. وأفكّر كثيراً: لا أريد أن يقول الناس إني جميلة. أريد أن أكون عادية، وأكوّن صداقات كالآخرين".

ومدّت يداً فربّتت في خفّة يدي على البار. "يسعدني أنكَ تتمتّع بحياتك".

كنتُ صامتاً.

فسألت "أنتَ سعيد، هه؟"

"لا أعرف. على الأقلّ لستُ تعيساً، ولستُ وحيداً". وبعد لحظة، أضفتُ "لكن أحياناً تصعقني فكرة أن أسعد أوقات حياتي حين كنا بغرفة ..معيشـ..تكم، نسمع موسيقى".

"تعرف، لا تزال عندي الاسطوانات. نات كنج كول، بنج كروسبي، روسيني، بير جنت، والآخرون كلّهم. لم ينقص أحد. ورثتُ خزانة أبي

حين مات. فاعتنيتُ بها، وهي حتى الآن لا تحمل خدشاً. تذكر كم أُراعيها في حرص".

"إذن، مات والدكِ".

"من خمس سنين، سرطان بالقولون. طريقة فظيعة في الرحيل. وكان دائماً بصحة جيدة".

قابلتُ والدها مرات. صدمني بصلابته كشجرة البلّوط النامية في حديقتهم.

فسألتُ "وأمكِ بخير؟"

"هيه. أظنّ".

أزعجتني نبرة صوتها. "لستِ على وفاق معها؟"

أنهت شيماموتو كأسها الديكري، وضعت الكأس، ونادت الساقي.

"عندكَ أيّ مزيج خاص توصي به؟"

قلتُ "لدينا أمزجة أصلية مختلفة. أكثرها شيوعاً روبين نست، وراء البار. حاجة صغيرة أخلطها لنفسي. أنتِ تستخدمين الروم والفودكا كقاعدة. ينزل بنعومة، لكنه يلسع قليلاً".

"يبدو جيداً للنسوة الودودات".

"آه، أظنّه أهمّ الأمزجة".

فابتسمَت. "لا بأس، أُجرّبه".

حين وضع أمامها المزيج، حدجت لونه، ثم أخذت رشفة متردّدة. أغلقت عينيها، وتركت النكهة تسري. قالت "مذاقه ماكر، أليس كذلك. ليس حلواً، ولا حامضاً. بل خفيف، بسيط، لكن مع ثقل ما. ليس عندي فكرة أنكَ موهوب هكذا".

"ليس لي أن أشيّد رفاً بسيطاً. فلا أعرف كيف نغيّر مرشّح زيت بسيارة. ولا حتى لصق طابع بمظروف. ودائماً ما أُدير رقم الهاتف خطأ. لكني توصّلتُ إلى بعض أمزجة أصلية يبدو أنها تُعجب الناس".

أراحت كأسها على البار، تتطلّع فيه وهلة. وحين مسّته، رجفت الأنوار المعكوسة فوق الرؤوس بخفّة.

"لم أر أمي من زمن طويل. حدث بيننا شجار من عشر سنوات، ولم أرها منذئذ. رأينا بعضنا الآخر، طبعاً، في جنازة أبي".

أنهى ثلاثيّ البيانو معزوفات الجاز الأصلية، وبدؤوا مقدّمة "عشاق منحوسون". وأنا في الحانة، يبدأ عازف البيانو غالباً عزف هذا البالاد[1]، يعرف أنه المفضّل عندي. لم يكن أشهر ألحان النجتون[2]، ولا عندي ذكريات خاصة مؤسّسة عليه؛ لكن سمعته مرة، وحرّك أوتاري. من الكلية إلى سنوات الناشر التعليميّ الكئيبة، أسمع في المساء ألبوم "رعدة لذيذة" ومقطع "عشاق منحوسون" مرة ومرات. جوني هودج يؤدّي هذا اللحن الفرديّ بحساسية أنيقة. وحين أسمع اللحن البديع الواهن، أستعيد تلك الأيام. لم يكن يمثّل الجزء السعيد من حياتي، الحيّ كما كان، بل قدّاس موسيقيّ من رغبات غير مُشبَعة. كنتُ أصغر، أشدّ جوعاً، أبأس وحدة. لكني كنتُ نفسي، مُشذّباً حتى الأصول. أحسّ بكلّ لحن موسيقيّ، كلّ سطر أقرأه، وهو يرشح داخلي. أعصابي حادّة كالشفرة، وعيناي وامضتان كنور ثاقب. وكلّما أسمع هذه الموسيقى، أذكر عينيّ عندئذ، وهما تُحدّقان فيّ من مرآة.

(١) البالاد: قصيد موسيقيّ معدّ للبيانو أو الأوركستر. (م)

(٢) الدوق ادوارد كيندي النجتون: (١٨٩٩ ـ ١٩٧٤)، موسيقار أمريكيّ. (م)

قلتُ "تعرفين. مرة، وأنا بالسنة الأخيرة من المتوسّطة، رحتُ لأراكِ. أحسستُ بكثير من الوحدة، فلم أطق صبراً. حاولتُ الاتصال بكِ، ولم أتلق رداً. فأخذتُ القطار فوراً إلى مكانكم، لكني وجدتُ اسماً آخر على جرس الباب".

"انتقل أبي، وتحرّكنا بعد سنتين من انتقالكَ. إلى فوجيساوا، قرب انوشيما. بقينا فيه إلى أن رحتُ الكلية. وأرسلتُ لكَ بطاقة بعنواننا الجديد. ألم تتسلّمها؟"

هززتُ رأسي. "لو تسلّمتها، لكتبتُ رداً. غريب. ربما حدث بعض الميلان بمكان في الخطّ".

قالت "وربما كنا منحوسين. فقد أدّى بنا ميلان خطّ إلى أن نفقد بعضنا الآخر، في النهاية. لكن على أيّ حال، وددتُ لو أسمع عنكَ. كيف تعيش الحياة".

قلتُ "كنتُ سأجلب الدموع لعينيكِ".

"لا يهمّ. ولا يزال عندي رغبة أن أسمع".

فشرحتُ لها خطوط حياتي العامة. كيف اتّخذتُ صديقة بالثانوية، لكن انتهت بأن آذيتها إلى حدّ مؤلم. وفّرتُ عليها التفاصيل المثيرة. بيّنتُ أن شيئاً قد حدث، وأني آذيتُ الفتاة. وانتهى الأمر، خلال ما حدث، إلى إيذاء نفسي. كيف ذهبتُ إلى الكلية في طوكيو، وعملتُ لدى ناشر تعليميّ. كيف امتلأت عشرينياتي بأيام وحيدة، دون صحاب. خرجتُ مع نساء، لكني لم أكن سعيداً. حكيتُ لها كيف، منذ أن تركتُ المدرسة الثانوية حتى صادفتُ يوكيكو وتزوّجتُ، لم أحبّ أحداً قطّ. كيف كنتُ أفكّر فيها غالباً حينئذ، وظننتُ كم سيكون رائعاً لو رأى أحدنا الآخر، حتى ولو ساعة، ونتكلّم. فابتسمت شيماموتو.

"كنتَ تفكر فيّ؟"

"طول الوقت".

قالت "وأنا، أيضاً، أظلّ أفكّر فيكَ. وقتما أحسّ بالسوء. كنتَ الصديق الوحيد الذي صادفته، هاجيمي". وأراحت ذقنها فوق يد تسندها على البار، وأغمضت عينيها كأن الحيوية كلّها تتسرّب من جسمها. لا تلبس أيّ خواتم. ارتجف قاع ذراعيها. فتحت عينيها ببطء، أخيراً، تتطلّع في ساعتها. فتطلّعتُ أيضاً. قرب منتصف الليل.

أخذت حقيبة يدها، وهي تنزل من مقعدها. "ليلة سعيدة. سعيدة أني رأيتكَ".

ودّعتها إلى الباب. "هل أستدعي لكِ أُجرة؟ فالدنيا تمطر، ومن العسير لُقيا سيارة. لو كنتِ تفكّرين في العودة بالأُجرة".

هزّت شيماموتو رأسها. "لا بأس. لا تُجشّم نفسكَ تعباً. أستطيع الاعتناء بنفسي".

سألتُ "ألم يخب أملكِ؟"

"فيكَ؟"

"نعم".

فابتسمت. "لا، لم يخب. فأرحْ نفسكَ. لكن تلك البدلة - أليست آرماني؟"

لم تكن تجرّ رِجلها بالطريقة التي اعتادت. لا تتحرّك بسرعة، لكن لو أمعنتَ فيها، فهناك شيء صناعيّ بمشيتها، مع أنها تبدو عموماً طبيعية.

قالت، كمن يعتذر "أجريتُ عملية من أربع سنوات. لم تكن مائة بالمائة، لكنها لم تعد معطوبة كما كانت. عملية كبيرة، كشط في العظام، وترقيعها معاً. لكن الأمور مضت على خير".

قلتُ "عظيم. رِجلكِ رائعة الآن".

قالت "صحيح. ربما كان قراراً صائباً. مع أني انتظرتُ طويلاً".

تناولتُ معطفها من حجرة الإيداع وعاونتها في لبسه. وقفت جانبي، لم تكن طويلة. بدا غريباً. حين كنا بالثانية عشرة، كنا بالطول نفسه تقريباً.

"شيماموتو. سأراكِ ثانية؟"

فردّت "محتمل". وتلاعبت ابتسامة حول شفتيها. ابتسامة كحفنة دخان تنجرف في هدوء عبر السماء بيوم ساكن. "محتمل".

فتحت الباب، وذهبت. بعد خمس دقائق، صعدتُ السلالم للشارع. قلقتُ من أنها قد تُلاقي صعوبة في العثور على أُجرة. لا تزال تمطر. لم تكن شيماموتو بأيّ مكان. الشارع خاوٍ. أعشتني أنوار السيارات الكاشفة، وهي تمرّ جنب الرصيف المبلّل.

ظننتُ، ربما كانت وهماً. فوقفتُ هناك طويلاً، أحدّق بالشوارع والمطر يكتسحها. مرة أخرى عدتُ ولداً بالثانية عشر، يُحدّق ساعات في المطر. لو نظرتَ طويلاً إلى المطر، دون أفكار برأسكَ، فستحسّ تدريجياً بجسمكَ يتهاوى، وتتحرّر حقيقة العالم. للمطر قوة تنويم مغناطيسيّ.

لم يكن هناك شبح. حين عدتُ للحانة، ظلّت كأس وطفاية حيث كانت. هناك أكثر من عُقب سيجارة مطحونة بخفّة في الطفاية، أثر واهن من أحمر شفاه بكلٍ منها. فجلستُ، وأغمضتُ عينيّ. تشحُب

أصداء موسيقى بعيدة، فتُخلفني وحيداً. في العتمة الرقيقة، واصل المطر هطوله دون صوت.

- ٩ -

لم أر شيماموتو فترة طويلة بعدها. كلّ مساء، أجلس على بار روبين نست، أُزجي وقتي. أقرأ كتباً، أحدّق كلّما يُفتح الباب الأماميّ. لكنها لم تأت. كنتُ خائفاً من أني قلتُ شيئاً خطأ، شيئاً لم أقصده، قد أزعجها. ومرة تلو مرة، أراجع كلّ ما قلناه تلك الليلة. ولا أتوصّل لشيء. خاب أمل شيماموتو. احتمال غريزيّ. فهي امرأة جميلة ورِجلها وطيدة. ما الجديد الذي تحبّ امرأة أن تجده فيّ؟

قارب العام على النفاد، وجاءت نهاية العام ثم مضت، وكذلك العام الجديد. انطوى عيد ميلادي السابع والثلاثون. وباد يناير فجأة. كففتُ عن انتظارها ونادراً ما كنتُ أظهر في روبين نست. فوجودي هناك يذكّرني بها، يجعلني أنقّب في أوجه الروّاد دون طائل. كنتُ أجلس في الحانة بمكاني الآخر، أقلّب صفحات الكتب، ضائعاً في استغراق مشتّت. بالنسبة لحياتي، فلم أكن أركّز.

أخبرتني إنني الصديق الوحيد الذي عرفته. مما بعث فيّ السعادة ومنح ميلاداً لأمل أن نعود أصدقاء ثانية. أردتُ أن أتكلّم معها عن أشياء كثيرة، أطلب رأيها. وإن لم تُرد أن تقول شيئاً عن نفسها، فلا يهمّني. مجرّد رؤيتها، والكلام معها، كاف.

لكنها لم تأت. قلتُ متأمّلاً، ربما مشغولة فلا تجد وقتاً لتراني. لكن ثلاثة أشهر جدّ طويلة كفراغ. حتى لو لم تستطع المجيء لتراني، ففي مقدورها، على الأقلّ، أن تلقط سمّاعة الهاتف، وتتّصل بي. لقد نسيَت كلّ شيء عني، هكذا حدَستُ. فلم أكن مهمّاً إليها، على أيّ حال. أمر

مؤلم، كأن ثقباً صغيراً بقلبي انفتح. لم يكن واجباً أن تذكُر إنها ستجيء ثانية. فالوعود، حتى الغامضة منها، تتلبّث في خيالي.

لكن مع أول فبراير، وثانيةً في ليلة مطيرة، ظهرَت. كان مطراً مُجمّداً هادئاً. ظهر شيء، وكنتُ في روبين نست، مبكّراً عن المعتاد. حملت مظلاّت الروّاد روائح مطر مقرور. وانضمّ عازف [illegible]ون صدّاح إلى ثلاثيّ البيانو المعهود في عزف وصلات جديدة. كان مشهوراً، فسرت رعدة بين الحضور. وكما هو دائماً، جلستُ بالركن من مقعدي عند البار، أقرأ. وجلست شيماموتو جانبي بهدوء.

قالت "مساء الخير".

فوضعتُ الكتاب، أتطلّع فيها. لم أصدّق عينيّ.

"كنتُ على يقين أنكِ لن تظهري هنا، أبداً".

قالت "سامحني. غضبان؟"

"لا. فأنا لا أغضب من أشياء كهذه. عموماً، هي حانة. يأتي الناس حين يريدون، ويروحون حين لا يريدون. وظيفتي أن أنتظرهم، فقط".

"آه، عموماً، آسفة. لا أستطيع الشرح، لكن لم أستطع المجيء".

"مشغولة؟"

فردّت بهدوء "لا، لستُ مشغولة. فقط، لم أستطع المجيء".

شعرها يبلّله المطر. وتلتصق خصلتان على جبينها. فطلبتُ النادل ليُحضر منشفة.

قالت "شكراً"، وجففَت شعرها. أخرجَت سيجارة، أشعلتها بولاّعتها. أصابعها مبلّلة، ترجف من المطر، وهي ترتعش طفيفاً.

"كانت السماء تردّ فقط، وفكّرتُ أن ألحق بأُجرة، فأنا ألبس معطفاً فقط. لكني بدأتُ السير، وانتهيتُ للسير مسافة طويلة".

سألتُ "ما رأيك في ساخن؟"

نظرَت عميقاً في عينيّ، وابتسمَت. "شكراً. أنا بخير".

خلال لحظة، أنستني ابتسامتها بُعاد الأشهر الثلاثة.

أشارت لكتابي "ماذا تقرأ؟"

فأريتها. تاريخ الصراع على الحدود الصينية الفيتنامية بعد حرب فيتنام. قلّبَت فيه، ثم أعادته لي.

"لم تعد تقرأ روايات؟"

"أقرأ. لكن ليس كثيراً كسابق عهدي. ولا علم لي بالروايات الجديدة. أحبّ القديمة منها فقط، من القرن التاسع عشر غالباً. تلك التي قرأتها من قبل".

"وما عيب الروايات الجديدة؟"

"أخشى خيبة الأمل. فقراءة الروايات التافهة تُشعرني بمضيعة الوقت. وليس الأمر هكذا دائماً. فقد اعتدتُ أن أملك المزيد من الوقت، ومع أني أعرف أنها قمامة، فلا أزال أحسّ بشيء جيد يُستنبط من قراءتها. اختلف الأمر الآن. ربما كبرتُ".

قالت "نعم، آه، صحيح أنتَ تكبر"، وهي تمنحني ابتسامة شيطانية.

سألتُ "وماذا عنكِ؟ ألا زلتِ تقرئين؟"

"نعم، طيلة الوقت. كتب جديدة، كتب قديمة. روايات، وأيّ شيء آخر. كتب تافهة، كتب جيدة. أنا تقريباً على النقيض منكَ - لا يعنيني القراءة لقتل الوقت".

طلبَت من الساقي مزيج روبين نست. وطلبتُ مثله. احتسَت رشفة، وأومأت طفيفاً، ثم وضعَت الكأس على البار.

"هاجيمي، لماذا الأمزجة هنا أفضل بكثير من أيّ مكان غيره؟"

رددتُ "لأننا نبذل قصارى جهدنا لجعلها هكذا. دون جهد، لا نتيجة".

"ما الجهد الذي تقصده؟"

"أنا أدفع له مبلغاً طائلاً"، قلتُ، وأنا أشير للساقي الشاب الوسيم، وكلّه تركيز جادّ، وكان مشغولاً بتكسير قطع الثلج بقدّوم الثلج. "سرّ أحفظه عن أعين المستخدمين الآخرين. وسبب الراتب العالي مهارته بخلط المشروبات الجيدة. لا يدرك معظمنا ذلك، لكن الأمزجة الطيبة تحتاج مهارة. قد يعمل أيّ امرئ مشروبات مقبولة بأقلّ مجهود. درّبيهم عدّة أشهر فيستطيعوا عمل مشروب ممزوج قياسيّ؛ من نوعية ما يُقدّمه معظم الحانات. لكن لو أردتِ نقلهم للمستوى التالي، فعليكِ أن تمتلكي حسّاً بالتمييز. مثل عزف البيانو، الرسم، العَدو في سباق المائة متر. خُذيني أنا: أظنّني أستطيع خلط مزيج ممتاز. درستُ ومارستُ. لكن لا طريقة لتنافُسي معه. أضع الكحول نفسه بالضبط، وأرُجّ الرجّاجة الزمن نفسه، ثم لا يخرج مذاقه طيباً مثله. لا علم لي بالسبب. كلّ ما أقوله، موهبة. مثل الفنّ. هناك خطّ يستطيع عدد محدود عبوره. هكذا تجدين الموهوبين، وعليك برعايتهم جيداً وعدم التفريط فيهم. ناهيكِ عن الدفع لهم جيداً". وكان الساقي شاذاً، لذلك يتجمّع بالحانة أحياناً شواذٌ آخرون. باقة هادئة، لكنهم لا يزعجون. أحبّ الساقي الشاب، وهو يثق بي، يعمل بجدّ.

قالت شيماموتو "يبدو أنه لديكَ موهبة من زمان في إدارة عمل كهذا".

قلتُ "أخشى، لا. لا أعتبر نفسي رجل أعمال. مجرّد أن تملّكتُ حانتين صغيرتين. ولا أخطّط لفتح المزيد، أو كسب أكثر مما أكسب حالياً. ليس لكِ أن تسمّي ما أفعله موهبة. لكن، تعرفين، أتصوّر أحياناً أشياء، وأتظاهر بأني زبون. لو كنتُ زبوناً، فأيّ حانة سأذهب، ماذا أحبّ أن

آكل وأشرب. لو كنتُ أعزب في العشرين، فأيّ مكان أحبّ أن آخذ فتاتي إليه؟ كم أنفق؟ أين أعيش وإلام أتأخّر؟ هذا السيناريو كلّه. وكلّما توصّلتُ لمزيد من السيناريو، زاد تركيزي في الصورة التي ينبغي أن تبدو عليها حانتي".

كانت شيماموتو تلبس سترة زرقاء فاتحة بياقة مرفوعة، وجونلة من أزرق بحريّ. يُضوّي من أذنيها حلق صغير. و تُبين سترتها المحبوكة عن شكل ثدييها. فوجدتُ نفسي فجأة أسترّوح أنفاسي.

قالت "واصل". ومرة أخرى هلّت الابتسامة السعيدة على شفتيها.

"ماذا؟"

قالت "فلسفة عملكَ. أحبّ أن أسمعكَ تتكلّم هكذا".

فاستحيتُ قليلاً، هناك ما لم أفعله من زمن طويل. "لا أسمّيها فلسفة عمل. تعرفين، هذه العملية الكاملة واحدة مما أفعله منذ صغري: التفكير في كلّ شيء، السماح لخيالي بأن يتولّى الزمام. قمتُ بتشييد مكان متخيّل في رأسي، وقليلاً قليلاً أضفتُ تفاصيل إليه. ثم غيّرتُ هذا وذاك ليناسبني. وكما أخبرتكِ، بعد الكلية عملتُ رِدحاً طويلاً لدى ناشر تعليميّ. عمل مضجر. لا مساحة فيه لزرع الخيال. فأمرضني. لم أعد أتحمّل ذهابي للعمل. فشعرتُ أني أختنق، أنكمش كلّ يوم، وذات يوم قادم كنتُ سأختفي، كلياً".

أخذتُ رشفة من شرابي، وحدّقت حولي بالحانة. حضور معقول، باعتبار المطر. ثم وضع عازف الســـكسفون الصدّاح آلته في حقيبتها. فناديتُ النادل، بلّغته أن يأخذ زجاجة ويسكي إلى عازف الســـكسفون، ويسأله إن كان يحبّ تناول شيء.

واصلتُ "لكن الأمر مختلف، هنا. عليكِ بزرع خيالكِ لتبقي. وضعي أفكاركِ فوراً محلّ التنفيذ. دون لقاءات، دون سماسرة. دون سوابق للقلق من شأنها، أو موجّهي دواوين تعليم للتباري معهم. صدّقيني، أمر عظيم. هل عملتِ مرة في شركة؟"

فابتسمَت، تهزّ رأسها "لا".

"اعتبري نفسكِ محظوظة. فلستُ وشركاتي على وفاق. لا أظنّ أن تجدي أيّ فرق. قناعة ثماني سنوات عمل. ثماني سنوات في مقلاة. العشرين؛ أفضل سنيني قاطبة. أتساءل أحياناً كيف تحمّلتُ طويلاً. أظنّ ذلك ما كان عليّ أن أكابده، كي أصل إلى ما عليه اليوم. والآن أحبّ وظيفتي. تعرفين، أحسّ أحياناً أن حانتيّ أماكن خيالية، أبدعها خيالي. قلاع بالخلاء. أبذر أزهاراً هنا، أشيّد نافورة هناك، أحفر كلّ شيء بعناية تامّة. ثم يأتي الناس، يتناولون مشروبهم، يسمعون الموسيقى، يتكلّمون، من ثم يعودون. يعتزمون إنفاق المزيد للمجيء هنا وتناول مشروبهم... تعرفين لماذا؟ لأن كلّ واحد ينشُد الشيء ذاته: مكان خياليّ، قلعة بالخلاء، وركن خصوصيّ".

أخرجت شيماموتو سجائر سالم من حقيبتها الصغيرة. قبل أن تستلّ ولاّعة، قدحتُ كبريتاً وأشعلتها. أحبّ أن أشعل سجائرها، أراقب عينيها تضيقان وهي تُحدّق في الشُعلة الخافقة.

قالت "لم أعمل يوماً واحداً في حياتي كلّها".

"ولا مرة؟"

"ولا مرة. ولا حتى وظيفة لبعض الوقت. فالعمل غريب عليّ. أحسدكَ. إني وحيدة دائماً، أقرأ الكتب. وأية أفكار قد تخطر على بالي تصبّ في، كيف أنفق أموالي، لا أن أجمعها". ومدّت ذراعيها أمامي. في ذراعها

اليمنى أسورتان ذهبيّتان رفيعتان، وبذراعها اليسرى ساعة ذهبية تبدو ثمينة. أبقت ذراعيها أمامي زمناً، كمن يعرض بضاعة للبيع. تناولتُ يدها اليمنى عندي، أُحدّق فترة في الأساور الذهبية. تذكّرتُها حين م ... بك ... يدي وأنا بالثانية عشر. تذكرتُ شعوري وقتها بالضبط. وكم بثّت فيَّ من رجفة.

قلتُ "لا أعرف... ربما التفكير في إنفاق المال أفضل". أفلتّ يدها، فشعرتُ أني أوشك أن أنجرف بُعيد مكان. "حين أُخطّط لجمع المال، فهو شبيه بفقد جزء مني".

"لكنكَ لا تعرف قدر الخواء حين تعجز عن إبداع شيء".

"أنا موقن من أنكِ أبدعتِ أشياء أكثر مما تعرفين".

"أية أشياء؟"

جاوبتُ "أشياء لا ترينها". وأمعنتُ في يديّ، أُريحهما فوق رُكبتيّ.

مسكت كأسها، وهي تنظر إليّ طويلاً. "تعني هذه المشاعر؟"

قلتُ "نعم. كلّ شيء يختفي ذات يوم. مثل هذه الحانة؛ فلن تبقى للأبد. أذواق الناس تتغيّر، فأيّ تموّج هامشيّ بالاقتصاد قد يُحيلها إلى هلاك. رأيتُه يحدث؛ لا يستغرق زمناً. فكلّ ما يتشكّل له يوم يختفي فيه. لكن، تبقى للأبد بضعة مشاعر".

"تعرف، هاجيمي، بعض المشاعر يسبّب لنا الألم، من بقائها. ألا تظنّ؟"

جاءني عازف ال... ك...ون الصدّاح يشكرني على الويسكي. فأثنيتُ على عزفه.

وضّحتُ إلى شيماموتو "عازفو الجاز هذه الأيام شديدو التهذيب. وأنا في الجامعة، لم تكن هكذا الحال. كانوا كلّهم يتعاطون المخدّرات،

ونصفهم أقلّه منهك القوى. لكنكِ تسمعين أحياناً عزفاً يُفجّر رأسكِ. كنتُ دائماً أسمع الجاز بنوادي شنجوكي. وأتطلّع دائماً إلى من يُفجّر رأسي".

"تحبّ هذه النوعية، حقاً؟"

قلتُ "أظنّ. يحبّ الناس الصرعة. قد تنسي تسع مرات من عشرة، لكن هذه المرة العاشرة، التجربة الذروة، هي ما نريد. ما يُثير العالم. هذا هو الفن".

نظرتُ ثانية في يديّ، مرتاحتين على رُكبتيّ. رفعتُ بصري. كانت تنتظر أن أواصل.

"على أيّ حال، الأمور اختلفت الآن. فأنا مدير حانة، وظيفتي استثمار رأس المال، وتظهير ربح. لستُ فناناً ولا مبدعاً. ولا حتى نصيراً للفنون. به أو بغيره، فليس هذا مكاناً نفتّش فيه عن الفنّ. والأسهل على المدير أن يملك زمرة مهذّبة، مستعدّة، واثقة، عن قطيع من عيّنة شارلي باركر[1]".

طلبَت مزيجاً آخر. أشعلَت سيجارة أخرى. صمتنا فترة. بدت تائهة الفكر. أنصتّ للّحن المفرد الطويل من عازف الباص "عناقكِ ممكن". وأضاف عازف البيانو نغماً مصاحباً اتّفاقياً، ريثما يمسح ضارب الطبلة عرَقه، ويتناول شراباً. ثم ظهر زبون ودردشنا قليلاً.

(١) Charlie Parker: (١٩٢٠ ـ ١٩٥٥)، مطرب زنجيّ أمريكيّ، اكتُشفت عبقريته الموسيقية بعد وفاته. ويُشتهر بحياته الغامضة، الفوضوية، وزيجاته الكثيرة. (م)

بعد وقت، قالت شيماموتو "هاجيمي، هل تعرف أنهاراً جذابة؟ نهراً بديعاً في وادٍ، لا يكون كبيراً، بل يسيل جارفاً نوعاً إلى البحر؟"

مأخوذاً بالمفاجأة، نظرتُ إليها. "نهر؟" عن ماذا تتكلّم؟، وكان وجهها دون تعبير. هادئة، كمن يحدّق في مشهد بعيد. ربما أنا البعيد؛ بعيد عن عالمها، على الأقلّ، بمسافة فاصلة، لا يمكن تخيّلها. أصابتني الفكرة بالانقباض. فهناك شيء في عينيها يثير الأسى.

سألتُ "ولماذا النهر فجأة؟"

فردّت "خطر على بالي. هل تعرف نهراً كهذا؟"

وأنا طالب، سافرتُ عبر البلاد قليلاً بحقيبة نوم. فرأيتُ عدّة أنهار يابانية. لكني لم أفكّر في نهر كهذا الذي وَصَفَته.

قلتُ، بعد استغراق طويل "أظنّ هناك نهر كهذا، يمضي إلى ساحل بحر اليابان. لا أذكر اسمه. لكني واثق أنه بمقاطعة يشيكاوا. لا يصعُب أن نجده. فهو الأقرب إلى مبحثكِ".

أذكُر النهر بوضوح. ذهبتُ هناك خريف سنتي الأولى أو الثانية، في الكلية. نباتاته بديعة، والجبال المشرفة عليه كأنها مصبوغة بدم. جبال تُلاحق البحر، وسريان المياه هائل، وقد تسمع أحياناً صرخة غزال من الغابة. وكان السمك الذي تناولته لذيذاً إلى حدّ لا يُصدّق.

سألت شيماموتو "بمقدوركَ أن تأخذني هناك؟"

فقلتُ بصوت جافّ "إنه بعيد في يشيكاوا. اسمه انوشيما، أظنّ، سنأخذ طائرة، ثم نسوق بسيارة ساعة، على الأقلّ. ونلبث الليلة. أنا متأكّد من فهمكِ أني لا أستطيع فعل شيء في هذه الآونة".

تحوّلت شيماموتو ببطء في مقعدها، ودارت تواجهني. "هاجيمي، أعرف، لا يجب أن أطلب منكَ هذه الخدمة. أتفهّم. صدّقني، أدرك، لكَ

حدود. لكن لا يوجد غيركَ أطلب منه ذلك. سأمضي هناك، ولا أريد المضيّ وحدي".

نظرتُ في عينيها. كانتا مثل نبع عميق في ظلّ جُرفٍ هاوٍ، حيث لا يمكن للنسيم أن يمرّ. لا شيء قد يتحرّك هناك، فكلّه ساكن. لو نظرتَ عن قُرب، فستتبيّن المشهد المنعكس على صفحة الماء.

"سامحني". وابتسمَت، كأن قوّتها صُفّيت. "لا تظنّ، أرجوكَ، أني جئتُ هنا لأطلب منكَ ذلك. أردتُ فقط أن أراكَ وأكلّمكَ. لم أُخطّط لاختراع هذا".

أدرتُ حساباً ذهنياً سريعاً للزمن. "لو رحلنا الصباح الباكر، واستطلعنا برحلتنا في الطائرة، لأمكن أن نعود قبل آخرة الليل. ويعتمد هذا، طبعاً، على الزمن الذي قد نُقضّيه هناك".

قالت "لا أظنّ أنّا سنستغرق طويلاً. فهل لكَ أن تُفرّغ نفسكَ للطيران هناك والعودة معي؟"

فكّرتُ عميقاً. "أظنّ. ليس لي أن أحدّد الآن، لكني سأفعلها. فاتّصلي ليلة غد، هه؟ سأكون هنا قرابة هذا الوقت. وأعمل على خطّة قبل هذا. فما توقيتكِ؟"

"ليس عندي شيء. أيّ وقت تجده مناسباً، فأنا مستعدّة".

فأومأتُ.

قالت "آسفة، فعلاً. ربما لم يكن عليّ أن ألقاكَ ثانية. أعرف، سأُدمّر كلّ شيء".

غادرت قبل الحادية عشرة بقليل. فمسكتُ مظلّة عليها، وأشّرتُ إلى أُجرة. فالمطر لا يزال يهطل.

قالت "وداعاً. وشكراً".

فقلتُ "وداعاً".

رجعتُ للحانة، إلى المقعد نفسه على البار. كان كأس مزيجها هناك. وفي الطفاية عدد من سجائر سالم المطحونة. لم أطلب من النادل أن يزيلها. ولأطول وقت، رحتُ أُحدِّق في اللون الباهت لأحمر الشفاه على الكأس والسجائر.

*

كانت يـكـيـكـو تنتظرني سهرانة، حين عدتُ. وهي تُلقي سترة صوف محبوكة على بيجامتها، وتشاهد فيديو فيلم "لورنس العرب". كان المشهد حيث لورنس، بعد ألوان المحاولات والمِحَن، قد اتَّخذ طريقه أخيراً في الصحراء، حتى وصل قناة السويس. وقد رأت الفيلم ثلاث مرات. أخبرتني، فيلم عظيم. أستطيع رؤياه مرة، ومرات. فجلستُ جانبها واحتسيتُ بعض النبيذ، ونحن نشاهد نهاية الفيلم.

قلتُ لها "الأحد القادم عندي اجتماع في نادي السباحة". أحد الأعضاء يملك يختاً كبيراً، أبحرنا على متنه مرات، نصطاد ونشرب. سيكون الجوّ بارداً على امتطاء يخت في فبراير، لكن زوجتي لا تعرف شيئاً عن القوارب، فلن تمانع. كما أني لا أخرج أبداً أيام الآحاد، ويبدو أنها تُفضّل أن أقابل الناس بمجالات أخرى، وأن أُزجي وقتاً خارج الديار.

قلتُ "سأرحل بواكير الصباح. وأعود قرب الثامنة، على ما أظنّ. سأتناول العشاء في المنزل".

قالت "لا بأس. فأختي قادمة هذا الأحد، على أيّ حال. وإن لم يكن الجوّ قارصاً، فقد نقوم بنزهة إلى شنجوكي جوين. فقط، نحن النسوة الأربعة".

قلتُ "عظيم".

وفي الظهيرة التالية، ذهبتُ لوكالة سفريات، حجزتُ طائرة، واستأجرتُ سيارة. هناك رحلة تعود إلى طوكيو السادسة والنصف مساء. يبدو أني سأعود إلى عشاء متأخّر. ثم مضيتُ للحانة، أنتظر شيماموتو أن تتّصل. فاتصلت حوالي العاشرة. أخبرتها "أنا مشغول قليلاً، لكن أظنّ حدّدتُ الميعاد. الأحد القادم مناسب؟"

فردّت "مناسب".

بلّغتها بوقت الرحلة، وأين تقابلني عند مطار هانيدا.

قالت "شكراً جزيلاً".

بعد إغلاق الخط، جلستُ إلى البار فترة، مع كتاب. وكان هياج الروّاد يزعجني، فلم أستطع التركيز.

رحتُ حجرة الإيداع فغسلتُ وجهي ويديّ بماء بارد، وحدّقتُ في صورتي بالمرآة. قلتُ لنفسي، كذبتُ على يكيكو. طبعاً، كذبتُ عليها سابقاً، حينما نمتُ مع أخريات. لكن لم أشعر بأني أخدعها. فهي مجرّد نزوات سالمة. لكن هذه المرة، خطيئة. لم تكن لأني خمّا ،ُ للنوم مع شيماموتو، لكنها، حتى الآن، خطيئة. للمرة الأولى من زمن طويل، نظرتُ إلى عمق عينيّ في المرآة. لم تُبلغني هاتان العينان شيئاً عمن أكون. فبسطتُ يديّ على الحوض، أتأوّه أسفاً.

كان النهر يسيل جارفاً على جُرفٍ هاوٍ، بأماكن تشكّل مساقط مياه صغيرة، كما يتجمّع بأخرى في مواقف داخل بركٍ، حيث تعكس صفحته شمساً مُشَعْشَعَة واهنة. هناك قنطرة حديد قديمة، فوق مجرى النهر. كانت ضيّقة فتكاد أن تنحشر سيارة واحدة في عبورها عليها. إطارها الحديديّ ثابت داكن، يغطس عميقاً في صمت فبراير البارد. كان الوحيدون العابرون القنطرة من نزلاء الفندق، ومستخدميه، ومسؤولي رعاية الغابة. حين سرنا فوقه، لم نمرّ بأحد كان يمضي للجانب الآخر، وبالنظر وراءنا لم نلمح أحداً. كانت شيماموتو تلبْس معطفاً صوفياً سميكاً، ياقته مرفوعة، مع شال ملتفّ عليها إلى أنفها. ملابس شبابية، تنفع للسير بين الجبال، ومختلفة كلياً عما اعتادت أن تلبسه. شعرها مربوط للوراء، وتلبس حذاء رياضياً للأراضي الوعرة. تحمل حقيبة كتف نيلون خضراء على أحد كتفيها. بلبسها هكذا، تبدو مثل طالبة مدرسة بالضبط. على كلّ ضفّة، تتخلّف رُقع جليد صلدة. ويُقعي غرابان برأس القنطرة، يحدجان النهر تحتهما، كلّ وهلة يطلقان نعيباً سليطاً خشناً. يتردّد صداه الراجف في الغابة المبسوطة تحت أوراق الشجر، ثم يعبر النهر فيرنّ تعيساً في آذاننا.

كان مدقّ غير مُمهّد ضيّق يشقّ طريقه على طول الضفّة البعيدة، صمت مريب، مدقّ مهجور يؤدّي (من يدري) إلى أين. ولا تبدو جنبه بيوت، فقط حقل أجرد مناسب. هناك أخاديد مغطّاة بالثلج ترسم خطوطاً بيضاء لامعة على أرض خلاء. والغربان في كلّ مكان. كأنها تنبئ جماعتها عن خطّ وصولنا، فتُطلق نعيباً حادّاً قصيراً كلّما نمُرّ. إنها تحتلّ أرضها، فلا

تسعى للطيران مُجفلة. قُربها، أستطيع أن أرى مناقيرها المسنّنة شبيهة بالمُدَى، واللون الزاهي لمناقيرها.

سألَت شيماموتو "ألا يزال عندنا وقت؟ هل لنا أن نسير أبعد قليلاً؟"

فنظرتُ إلى ساعتي. "لا بأس. يمكننا أن نلبث ساعة أخرى".

قالت "مكان هادئ جداً"، وهي تتطلّع حولها في بطء. كلّ مرة تفتح فمها، ينجرف نفَسها الأبيض النفّاذ في الهواء.

"هذا هو النهر الذي تبحثين عنه؟"

فابتسمَت. ردّت "يبدو أنكَ تقرأ أفكاري". ومدّت يدها في القفّاز تمسك يدي، وكانت أيضاً في قفّاز.

قلتُ "أنا سعيد. لو جئنا هذه المسافة كلّها، وقلتِ ليس المكان، فماذا نفعل؟"

قالت "ثق بنفسكَ أكثر. فأنتَ لا تقع بمثل هذه الأخطاء. لكنكَ تعرف، حين نمشي هكذا، نحن الاثنين، أتذكّر الأيام الخوالي. ونحن نسير عائدين من المدرسة".

"لم تكن رِجلكِ هكذا".

فكشّرت. "يبدو أنه خاب أملكَ".

فضحكتُ "تقريباً".

"فعلاً؟"

"كنتُ أمزح. يسعدني أن رِجلكِ أفضل. مجرد نوبة حنين، كما أخمّن".

قالت "هاجيمي، آمل أن تفهم أني ممتنّة لكَ أن فعلتَ معي هذا".

قلتُ "العفو. إنه كالذهاب في نزهة خلوية. عدا أنّا استقلّينا طائرة".

واصلت شيماموتو السير لوهلة، تتطلّع أمامها. "لكنكَ كذبتَ على زوجتكَ".

قلتُ "أعتقد".

"ليس الأمر سهلاً. أنا متأكّدة، لم تكن تريد الكذب عليها".

فلم أحِر جواباً. ومن الغابة القريبة، أطلق غراب نعيباً حاداً آخر.

قالت شيماموتو بصوت واهن "لقد أفسدتُ حياتكَ. أعرف".

قلتُ "اسمعي، لنكفّ عن الكلام في هذا. لقد جئنا هذه المسافة كلّها، فدعينا نتكلّم عن شيء أكثر بهجة".

"مثل ماذا؟"

"زِيُّكِ هذا، جعلكِ مثل طالبة مدرسة".

قالت "شكراً. ليتني أعود".

سرنا بطيئاً لأعلى النهر. سرنا صامتَين لوهلة، نركّز في سيرنا. لم تكن تسير في سرعة بالغة، لكنها تتّخذ خطوة ثابتة بطيئة. تحضن يدي بخفّة. وكان المدقّ صلباً من الجمَد، ونعالنا المطاطية لا تُصدر نأمة.

كانت تُلمّح، كنا نستطيع السير في هذا الدرب ونحن مراهقان، أو حتى بالعشرين، فكم كان رائعاً لو حصل! ظهيرة أحد، واثنانا فقط يتمهّلان على طول نهر كهذا... كنتُ سأنتشي. لكننا لم نعد بالمدرسة. كما أن عندي زوجة وأطفال ووظيفة. وعليّ أن أكذب على زوجتي لأكون هنا. أن أسوق عائداً للمطار، لأستقلّ طائرة توصلني إلى طوكيو بالسادسة والنصف، أُعجّل إلى بيتي، حيث ترقُبني زوجتي.

توقّفَت شيماموتو أخيراً، حكّت يديها داخل القفّازين معاً، ثم حدّقت حولها. نظرت أعلى النهر، ثم آخره. على الشطّ المواجه سلسلة جبال، وفي الجانب الغربيّ خطّ شجر أجرد. وكنا وحدنا. فندق الينابيع الحارّة،

حيث تناولنا الغداء، وقنطرة الحديد في خفاء ظلال الجبال. كلّ وهلة، كمن يتذكّر واجبه، تكشف الشمس وجهها ما بين فُسحة من السحب. ولا نسمع غير صراخ الغربان وموران المياه. ذات يوم، ذات مكان، أُحسّ أني سأرى هذا المشهد. عكس ما كان سابقاً؛ ليس حساً بأني رأيتُ ما كان حولي، لكن الهاجس بأني سأراه يوماً. وقد مدّ الهاجس يده الطويلة وتشبّث في خيالي بعنف. سأُحسّ بنفسي في قبضته. وهناك عند أطراف أصابعه، أكون أنا. أنا في المستقبل، وقد كبُرتُ. ولم أستطع، طبعاً، أن أرى ما سأكون.

قالت "هذه البقعة مناسبة".

سألتُ "لنعل ماذا؟"

فانداحَت ابتسامتها المعهودة الواهنة. ردّت "لفعل ما سأُباشر فعله".

نزلَت إلى ضفّة النهر. هناك بركة ماء صغيرة، يُغطّيها لوح رقيق من الثلج. في قاع البركة أوراق شجر متهافتة ساكنة، كأجسام سمك مسطّح ميت. فالتقطتُ حجراً مُدوّراً ولففتُه في يدي. خلعَت شيماموتو قفّازها، وضعته في جيب معطفها. فكّت حقيبة كتفها، فتحَتها وانتزعَت كيساً صغيراً من قماش بديع. كان في الكيس، جرّة رماد. حلّت ربطة الغطاء، وفي حرص فتحَت الجرّة. لوهلة راحَت تُحدّق فيما كان داخلها.

وقفتُ جوارها، أرقُب، دونما كلمة.

في الجرّة، كان رماد أبيض. وبعناية بالغة، حتى لا يتطاير أيّ منه، صبّت الرماد براحتها اليُسرى. يكفي بالكاد ملء يدها. رماد تخلّف عن إحراق جثّة، كما ظننتُ. الظهيرة هادئة دون عاصفة، فلم يثُر الرماد. أعادت شيماموتو الجرّة الفارغة إلى كيسها، ألصقت سبّابتها بالرماد،

ثم وضعت الإصبع على فمها ولعقته. نظرت إليّ، وحاولت أن تبتسم. لكن لم تستطع. ظلّ إصبعها قرب شفتيها.

ريثما تجثم جنب النهر، تنثُر الرماد، كنتُ أقف جوارها، أرقُب. في لحظة تطايرت حفنة الرماد الصغيرة. فوَقَفنا أنا وهي على الشطّ، نحدّق في الماء. كانت تحدج راحتها، وفي النهاية نضّت عن يديها رفيقاً بقايا الرماد، ولبست قفّازها.

سألت "هل يصل إلى البحر حقاً؟"

قلتُ "على ما أظنّ". لكنني لم أكن متأكّداً. فالمحيط على مسافة بعيدة. قد يقرّ الرماد في ذات مكان. لكن حتى عندئذ، فإن بعضه، أخيراً، سيصل إلى البحر.

تناولَت شظية من لوح خشب منبوذة قربها، بدأت تحفر بقعة أرض ليّنة. فعاونتُها. حين حرثنا حفرة صغيرة، دفنَت فيها الجرّة ملفوفة بالقماش. نعبت الغربان، عن بُعد، تراقب أفعالنا من البدء للختام. فكّرتُ، لا يهمّ؛ انظروا إن أردتم. فلم نكن نفعل السيئات. كلّ ما فعلناه، بعثرنا حفنة رماد محترق في النهر.

سألَت شيماموتو، وهي تلمس أعلى حذائها الرياضيّ "تظنّه يستحيل إلى مطر؟"

فتطلّعتُ إلى السماء. قلتُ "سيتبدّد بعد قليل".

"لا، ليس ذلك ما أعنيه. أقصد، هل يطفو رماد طفل إلى البحر، يمتزج بماء البحر، يتبخّر، متشكّلاً في سحاب، ثم يسقط على هيئة مطر؟"

فرفعتُ بصري إلى السماء مرة أخرى. ومن ثم إلى النهر في دفقه. جاوبتُ "ليس لكِ أن تعرفي".

*

توجّهنا بسيارتنا المؤجّرة عائدَين إلى المطار. الجوّ يسوء بسرعة. فالسماء ملبّدة بغيوم ثقيلة، وما من أزرق مرئيّ. يبدو أنها سوف تثلج في أيّ دقيقة.

قالت شيماموتو، كأنها تكلّم نفسها "إنه رماد وليدي. وليدي الوحيد الذي أنجبته".

فنظرتُ إليها، ثم أمامي. الشاحنات تنتشر وسط ثلج ذائب مخلوط بطمي، وعليّ أن أُدير المسّاحات بين حين وآخر.

قالت "مات طفلي بعد ولادته بيوم. عاش يوماً واحداً. حضنته مرتين. كان طفلاً جميلاً. ناعم جداً... لم يعرفوا لماذا، لكنه لم يكن يتنفّس جيداً. حين مات كان لونه مختلفاً فعلاً".

لم أستطع أن أنبس بكلمة. فمددتُ يدي ووضعتها على يدها.

"كان بنتاً. دون اسم".

"متى حدث؟"

"في مثل هذا الوقت، العام الماضي. فبراير".

قلتُ "يا للبؤس".

"لم أكن أريد دفنه في أيّ مكان. فلا أتحمّل التفكير أنه في مكان معتم. كنتُ أريد الحفاظ عليه جنبي فترة، ثم أدعه يطفو إلى البحر، ويستحيل إلى مطر".

صمتت زمناً طويلاً، طويلاً. وظللتُ أسوق، دونما كلمة. ربما لا تحسّ برغبة في الكلام، ففكّرتُ أنه يُفضّل تركها وحيدة. لكني لاحظتُ بعد قليل أن هناك شيئاً سيئاً - بدا تنفّسها غريباً، كلُهاث آليّ. اعتقدتُ في البداية أنه محرّك السيارة، ثم أدركتُ بعدئذ أن الصوت ينخر من

جانبي. كأن هناك ثقباً بقصبتها الهوائية، وأن الهواء يتسرّب منها كلّما تأخذ نَفَساً.

منتظراً تغيير نور الإشارة، رحتُ أنظر إليها. بيضاء كصفحة ورق ومتخشّبة إلى حدّ غريب. تُريح رأسها إلى مُسند الرأس، وتُحدّق للأمام. لم تكن تُحرّك عضلة؛ ومن وقت لآخر تطرف، كالمغصوبة. فواصلتُ أسوق وهلة قليلة إلى أن وجدتُ مكاناً لأقف؛ فُسحة عريضة كموقف سيارات. على رأس البناية، التي تشبه حظيرة طائرات، تنتصب لوحة إعلان لكرة بولنج عملاقة مثبّتة عليها. وحدنا، في موقف سيارات ضخم، كنا نبدو كمن في بريّة على حافّة الحضارة.

دُرتُ إليها "شيماموتو، أنتِ بخير؟"

فلم تردّ. فقط تجلس وظهرها للمقعد، وهي تُصدر صوتاً غريباً. وضعتُ يدي على خدّها. كان بارداً كما يُحيط بنا. لا أثر لدفء. فلمستُ جبينها، لكنه لم يُبن علامة عن حمّى. فشعرتُ أني أختنق. هل تموت، مباشرة، هنا، الآن؟ حين نظرتُ عميقاً في عينيها وجدتهما فاترتين. لم أر شيئاً؛ كانتا باردتَين، معتمتَين كالموت.

صرختُ "شيماموتو"، ولم أتلق ردّاً. عيناها دون تركيز. لم تكن حتى واعية. كان عليّ أن أوصلها "المستشفى" بسرعة. سنفوت طائرتنا قطعاً، لكن لا يهمّ القلق على الوقت الآن. قد تموت شيماموتو، وما من وسيلة عندي للحيلولة دون ذلك.

حين شغّلتُ السيارة ثانية، حاولَت أن تقول. فأوقفتُ المحرّك، ووضعتُ أذني على شفتيها، لكن لم أتبيّن كلماتها. كانت كلمات بأقلّ من صفير الريح في شقّ بالجدار. جاهدة قدر الممكن، ردّدت كلماتها مرات. فاتّضحت، أخيراً، كلمة واحدة "الدواء".

سألتُ "تأخذين دواء؟"

أومأت قليلاً، بصورة طفيفة لم أكد ألحظها. لكنها ما توصّلَت إليه. فنقّبتُ في جيب معطفها. محفظة، منديل، علاّقة مفاتيح بحزمة مفاتيح، لكن لا دواء. فتحتُ حقيبة كتفها. داخلها علبة صغيرة، بأربع كبسولات. أريتها. "هذه هي؟"

دون تحريك عينيها، أومأت.

فدفعتُ كرسيّها للوراء، فتحتُ فمها، وضعتُ به كبسولة. لكن فمها جافٌ كالعظام، فلن تبلع. فتّشتُ بجنون عن آلة دفع، ولم أجد. لم يعد هناك وقت. أما مصدر الماء الوحيد حولنا فهو الثلج. الحمد لله أنه متوفّر. قفزتُ من السيارة، حفنتُ بعض الثلج النظيف من تحت أفاريز البناية، وضعته في كاب شيماموتو الصوفي. قليلاً قليلاً، وضعت الثلج في فمي فأذبته. استغرق وهلة حتى ذاب كفاية وتخدّر لساني. فتحتُ فمها، لينساب الماء مني إليها. مسكتُ أنفها أغلقه، أُجبرها أن تبلعه: فاختنقَت قليلاً، لكن بعد مرتين، بلعَت الكبسولة أخيراً.

نظرتُ في العلبة. ليس عليها كتابة، لا اسم دواء، لا اسمها، ولا إرشادات. فكّرتُ، غريب، باعتبار توفّر مثل هذه الإرشادات حتى لا يأخذ الدواءَ أحدٌ بطريق الخطأ، أو ليعرف الآخرون ماذا يفعلون. أعدتُ وضع العلبة في حقيبتها، وراقبتها فترة. لم يكن عندي فكرة عن كنه الدواء، أو طبيعة أعراضها، لكنها على ما يبدو تحمل الدواء معها طول الوقت، فلا بد أنه ناجع. أظنّ هذه النوبة تتردّد عليها، دائماً.

بعد عشر دقائق، بدأ وجهها يستردّ بعض لونه. فوضعتُ رقيقاً خدّي على خدّها؛ ليستعيد سريان الدفء فيه. تنهّدتُ مرتاحاً، ثم أعدتُ الكرسيّ لتجلس كما كانت. لم تكن على وشك الموت، عموماً.

وضعتُ ذراعيّ حول كتفيها، حتى مسَّ خدّي بخدّها. وفي بطء، بطء بالغ، راحَت تعود إلى أرض الأحياء.

همسَت، بصوت أجشّ "هاجيمي".

سألتُ "ألا يجب الذهاب للمستشفى؟ قد نُلاقي قسم طوارئ قريباً".

فردّت "لا، لسنا في حاجة. أنا بخير. ما دمتُ أخذتُ دوائي، فلا بأس. سأعود أدراجي خلال دقائق. علينا القلق مما إن كنا نستطيع اللحاق بالطائرة".

"لا تقلقي، لخاطر الله. فسنبقى هنا حتى تشعري بتحسّن".

مسحتُ فمها بمنديل. أخذته في يدها، تتطلّع فيه. "أنتَ عطوف دائماً مع الجميع؟"

قلتُ "ليس مع الجميع. معكِ، آه. لستُ عطوفاً مع الجميع. فهناك حدود لعطفي؛ حتى مقدار عطفي نحوكِ. تمنيتُ ألاّ تكون؛ حتى أفعل المزيد من أجلكِ. لكني لم أستطع".

فاستدارت، تنظر إليّ.

قالت، بصوت واهن "هاجيمي، لم أفعلها لتفوتنا الطائرة".

مجفلاً، حدّقتُ فيها. "طبعاً لا! لستِ في حاجة لتقولي هذا. لقد أصابكِ مرض. ولا يد لكِ فيه".

قالت "آسفة".

"لا حاجة بكِ للاعتذار. فلم ترتكبي خطأً".

"لكن أفسدتُ خططكَ".

فلاطفتُ شعرها، ملتُ عليها أُقبّل خدّها. كنتُ أموتُ لاحتضان جسمها لصقي، كي أحسّ بدفئه. ولم أستطع. كلّ ما فعلته، قبّلتُ

خدّها. وكان دافئاً، ناعماً، نديّاً. فقلتُ "لا شيء للقلق عليه. ستمضي الأمور على خير".

■

حين وصلنا المطار وأعدنا السيارة، ظلّ أمامنا زمن معقول. لحسن الحظّ، تأخّرت طائرتنا. كانت على المَدرَج؛ والمسافرون ينتظرون بالاستراحة. فندّت عنا آهة. أخبرنا مسؤول بالمكتب، يعملون صيانة للمحرّك. ولا نعرف كم سيستغرق، كما قال؛ ليس لدينا معلومات إضافية. كان الجوّ ثلجاً حين وصلنا المطار؛ وبدأ نديفه فعلياً. مع هذا الثلج، قد تُلغى الرحلة.

سألتني شيماموتو "ماذا تفعل إن لم تستطع العودة اليوم إلى طوكيو؟"

قلتُ "لا تقلقي. ستُقلع الطائرة". دون أن يكون عندي برهان. فكرة أنها قد لا تُقلع، تثير كآبتي. سأستنبط عذراً مذهلاً. لماذا هذه المسافة إلى يشيكاوا؟ قلتُ لنفسي، يكفي؛ لنعبر الجسر حين نراه. فما ينبغي أن أقلق عليه هو شيماموتو.

سألتُ "كيف حالكِ؟ وأنتِ، ماذا ستفعلين إن لم نصل اليوم طوكيو؟"

هزّت رأسها. قالت "لا بأس. المشكلة هي أنتَ. ستكون في ورطة".

"ربما. لكن لا تخافي. فلم يصرّحوا بإلغاء الرحلة بعد".

قالت، كمن يكلّم نفسه "أعرف أن شيئاً كهذا قد يحدث. حين أتجوّل، لا يحدث شيء طيب أبداً. تستطيع أن تُعوّل على هذا المبدأ. ولو تورّطتُ، فالأشياء تمضي لأسوأ. تمضي الأشياء في سلاسة، ثم أدخل فتنفجر ا تتهاوى".

جلستُ على مقعد باستراحة المطار، أفكّر في المكالمة التي سأُجريها مع يـكيـكو لو أُلغيت الرحلة. تدبّرتُ عدّة أعذار ممكنة، لكن كلّ ما

تبدّى أمامي ضعيف. أرشّح القول إني قضّيتُ الأحد مع أصحابي بنادي السباحة، وانتهى الحال بأن أثلجت في يشيكاوا. ولا وسيلة للتفسير. سأُبلغها "حين تركتُ البيت غلبتني فجأة رغبة قوية لزيارة بحر اليابان، فرُحتُ مطار هانيدا". الخدمة، أن تسكت، أرجوكَ. إن كان هذا أقصى ما تستطيع فعله، فاخرس. الأفضل، أن أجرّب الحقيقة. قبل قليل، أمّلتُ أن تثلج فعلاً وتُلغى الرحلة. أمّلتُ، في اللاشعور، أن تكتشف زوجتي مجيئي هنا مع شيماموتو. أريد أن أضع نهاية لأعذاري، لكذبي. والأكثر، أريد أن أبقى بالضبط حيث أكون، مع شيماموتو جانبي، وأدع المقادير تأخذ مجراها.

أقلعت الطائرة أخيراً، متأخّرة ساعة ونصفاً. داخل الطائرة، مالت عليّ شيماموتو، ونامت. ربما تغمض عينيها فقط. فوضعتُ ذراعي حول كتفها وحضنتها لصقي. بدا أنها تبكي أحياناً. وصامتة طيلة الوقت؛ نطقنا أول كلمات قبل هبوط الطائرة.

"شيماموتو، متأكّدة أنكِ بخير؟"

وهي تُعشّش جانبي، أومأت. "أنا بخير. طالما أخذتُ الدواء. لا تقلق". ومال رأسها للوراء على كتفي. "لكن لا تسألني، هه، ماذا حدث؟"

قلتُ "فهمتُ. دون أسئلة".

قالت "شكراً جزيلاً على اليوم".

"أيّ جزء من اليوم؟"

"حين أخذتني للنهر. حين سقيتني الماء من فمكَ. حين تحمّلتني".

فنظرتُ إليها. كانت شفتاها أمامي. الشفتان اللتان قبّلتهما وأنا أسقيها الماء. ومرة أخرى بدت الشفتان كأنهما تنشُدانني. كانت مُفترّتين طفيفاً، عن أسنان بيضاء بديعة تُرى بمشقّة. لا زلتُ أحسّ لسانها الطريّ،

الذي لمسته خفيفاً، وأنا أسقيها الماء. صعُب عليّ التنفس، فلم أرد التفكير. جسمي يحترق. وهي تريدني، على ما أظنّ. وأنا أريدها. لصقتُ خدّي نوعاً. لكني سأتوقّف، حيث أنا. ثمة خطوة أخرى، ولن يكون بعدها نقطة عودة.

*

اتّصلتُ بالبيت من مطار هاجيما. كانت الثامنة والنصف. قلتُ لزوجتي، آسف على تأخّري. لم أستطع الاتصال. سأعود خلال ساعة".

قالت "انتظرتُ طويلاً. ثم ذهبتُ وتناولتُ العشاء. عملتُ عجّة".

قمتُ بتوصيل شيماموتو بسيارتي، وكنتُ أركنها عند المطار. سألتُ "أين آخذكِ؟"

قالت "أنزلني عند آوياما. سأعود من هناك بنفسي".

"هل أنتِ بخير؟"

فابتسمت وسع شفتيها، وأومأت.

سُقنا صامتَين، حتى انحرفتُ عن الشارع العام في جاين. وضعتُ شريط كونشرتو الأرغن لهاندل[1]، بصوت خفيض. شيماموتو تشبك يديها في حِجرها وتتطلّع من النافذة. كان مساء الأحد، والسيارات حولنا تزدحم بالعائلات العائدة من يوم نزهة. فخفّفتُ ناقل الحركة.

"هاجيمي"، قالت شيماموتو ونحن نقترب من جادّة آوياما. "فكّرتُ، وهلة، كم كان لطيفاً لو لم تُقلع الطائرة".

(١) جورج فردريك هاندل: (١٦٨٥ ـ ١٧٥٩)، موسيقار إنجليزي. ألّف أكثر من أربعين أوبرا. (م)

فكّرتُ في الشيء نفسه بالضبط، وأردتُ أن أخبرها. لكني لم أنبس. كان فمي جافاً فلم تجد الكلمات طريقاً للخروج. أومأتُ، فحسب، وأنا أمدّ يدي لملاقاة يدها. عند زاوية مربّع آوياما الأول، أخبرتني أن أوقف السيارة، فخلّيتها تنزل.

سألت في رقّة، وهي تفتح الباب "هل آتي لأراكَ ثانية؟ تتحمّل أن تكون حولي؟"

قلتُ "سأنتظر".

فأومأت شيماموتو.

وأنا أسير مبتعداً، فكّرتُ: إن لم أرها ثانية، فقد أُجنّ. وبمجرّد أن خرجَت من السيارة ثم راحت، صار عالمي فجأة فارغاً غير ذي معنىً.

بعد أربعة أيام من عودتي أنا وشيماموتو من يشيكاوا، جاءتني مكالمة غير متوقّعة من حماي. يطلب خدمة، ودعاني للغداء اليوم التالي. فوافقتُ، مندهشاً بصراحة. لأن جدوله المشغول لا يسمح في العادة إلا بغداء عمل.

قبل ستة أشهر، انتقلت شركته من يويوجي إلى بناية جديدة من سبعة طوابق، في يوتسيوا. تشغل مكاتبه الطابقين العلويين، وأجّر الطوابق الخمسة السفلية لشركات أخرى، مطاعم ومحالّ. أول مرة أكون هناك. كلّ شيء متلألئ، من طراز رشيق جديد. للبهو أرضية مرمر، وسقف كاتدرائية، كما يتكوّم الزهر عالياً فوق أُصص خزفية ضخمة. حين خرجتُ من المصعد بالدور السادس، صادفت موظفّة استقبال شابة شعرها مذهل، بدت أشبه بإعلان شامبو. اتّصلَت بحماي، تخبره أني وصلتُ. لديها هاتف رماديّ داكن بتقنية عالية يذكّرني بسكّين صيدليّ مع آلة حاسبة مرفقة. أشارت، تقول "تفضّل، رجاءً. الرئيس ينتظرك". ابتسامة مذهلة، مع أنها لا ترقى إلى درجة ابتسامة شيماموتو.

مكتب الرئيس بالطابق العلويّ، وتطلّ النافذة الكبيرة على مشهد واسع للمدينة. لم يكن أكثر المشاهد ترحيباً، لكن الغرفة ساطعة فسيحة. على الحائط، لوحة لأحد الانطباعيين. صورة لمنزل مضاء وقارب. تشبه أعمال سورا[1]، وقد تكون أصلية.

قلتُ "التجارة مزدهرة، كما ألحظ".

(١) جورج سورا: (١٨٥٩ ـ ١٨٩١)، فنان تشكيليّ فرنسيّ. رائد النزعة الانطباعية الجديدة. (م)

ردّ "ليست سيئة". سار للنافذة، وأشار خارجها. "ليست سيئة قطعاً. بل في تحسّن مطّرد. هذا زمان جمع المال. بالنسبة لمن في مجال عملي، فهذه الفرصة لا تأتي للمرء إلا كلّ عشرين أو ثلاثين عاماً. إن لم تجمع المال الآن، فلن تجمعه قطّ. هل تعرف السبب؟"

"ليس عندي فكرة. فأعمال التعمير ليست مجالي".

"انظر إلى طوكيو من هنا. قطع الأرض الخلاء هذه؟ مثل فم مليء بأسنان مفقودة. لو نظرت تحتكَ من هذا العلوّ، سترى العالم كلّه، لكنكَ لو مشيتَ حول المدينة من الأرض سيفوتكَ هذا. هناك منازل وبنايات قديمة في تلك المساحات، لكنها تهدّمت. وارتفع سعر الأرض للسماء، فلم تعد البنايات القديمة مربحة. ليس لكَ أن تتحمّل إيجاراً عالياً، ويصعُب أن تجد سكاناً. ولذلك يحتاجون إلى بنايات أكبر، وأحدث. والبيوت الخاصة في المدينة - آه، لم يعد الناس يتحمّلون كُلفة ضرائب الممتلكات أو ضرائب الأيلولة. فهم يبيعون أو ينتقلون للضواحي. كما تبتاع شركات التعمير الكبرى المنازل القديمة، تطحنها إلى كرة حطام، لتنشئ محلّها بنايات أكثر حداثة وعملية. ولن يمر طويل وقت على هذه المساحات الشاغرة حتى تُقام عليها بنايات جديدة. خلال سنتين، لن تعرف طوكيو. فلا نقص برأس المال. والاقتصاد اليابانيّ مزدهر، والأسهم مرتفعة. والبنوك تتفجّر برُزَم النقدية. لو عندكَ أرض ضمانة للزمن، فستقرضكَ البنوك قدر ما تريد. ولهذا السبب، ستنهض هذه البنايات جميعاً واحدة بعد أخرى. وخمّن من سيبنيها؟ رجال مثلي".

قلتُ "أرى. لكن لو بُنيت هذه البنايات، فماذا سيحدث لطوكيو؟"

"ماذا سيحدث؟ آه، ستصبح أكثر حيوية، أشدّ جمالاً، أعلى فعالية. إن المدن صدىً لصعود الاقتصاد، على أي حال".

"كلّه جميل، لكن طوكيو تختنق بالسيارات. والمزيد من ناطحات السحاب والطرق سيُحيل المدينة إلى موقف سيارات ضخم. فكيف نصون توصيلات المياه لو حدث جفاف مرة؟ في الصيف، حين يشغّل الناس كلّهم مكيّفات الهواء، فلن تُجاري الطلب الكهرباء. كما أن معامل الطاقة تُدار بوقود الشرق الأوسط، صحيح؟ فماذا يحدث لو صارت أزمة نفط أخرى؟ هه؟"

"خلّ الحكومة تتصوّر العلاج. أليس ذلك ما ندفع الضرائب من أجله؟ خلّ خريجي جامعة طوكيو يُعملون عقولهم. فهم يطوفون دائماً بأنوف شامخة في الهواء؛ كأنهم من يُدير البلاد. خلّ هؤلاء يدسّون رؤوسهم شائكة الشعر في العمل لأجل التغيير. لا أملك الردّ. فأنا معمّر بسيط. تأتيني طلبات البنيان، وأقوم بالتنفيذ. وهو ما نطلق عليه "قوى السوق"، فهل أنا على حقّ؟"

لم أقل شيئاً. فلم آت هذا الطريق إلى هنا للجدل حول الاقتصاد اليابانيّ.

قال "عموماً، لنُسقط هذه الأمور المعقّدة، ونذهب للطعام. فأنا أموت جوعاً".

راكباً سيارته المرسيدس السوداء الضخمة، سُقنا إلى مطعمه المفضّل الذي يشوي سمك الأنكليس، في آكاساكا. أرشدونا إلى إيوان خاص في الخلف، حيث استقرّينا بانتظار الوجبة. انتصف النهار، فارتشفتُ قليلاً من الساكي[1]، لكن خماي راح يكرع كأساً بعد آخر.

(١) الساكي: عَرَق ياباني، يُصنَع من تخمير الأرز، ويُقدّم حاراً في العادة. (م)

سألتُ "قلتَ لديكَ ما تريد الكلام عنه؟". لو كانت أخباراً سيئة، فالأفضل أن تخرج بها أولاً.

فقال "عندي خدمة. ليست كبيرة. أحتاج استخدام اسمكَ في شيء".

"اسمي؟"

"سأبدأ شركة جديدة وأحتاج استخدام اسم آخر، كمؤسّس. لا يحتاج الأمر مؤهّلات خاصة. فقط، اسمكَ. أعد بأني لن أُسبب لكَ أية متاعب، وستُكافأ عليه".

قلتُ "لا تهتمّ. إن كان يساعدكَ، فاستخدم اسمي أيّ مرة تحتاجه. لكن عن أيّ نوع من الشركات تتحدّث؟ إن كان اسمي المؤسّس، فعليّ أن أعرف، جيداً".

ردّ حماي "شركة بالاسم فقط، سأوضّح. فهي غير موجودة في الواقع".

"بمعنىً آخر، شركة مزيّفة. وهمية".

"لتقُل هذا".

"وما الحكاية؟ تهرّب ضريبيّ؟"

فقال، على مضض "همم... ليس بالضبط".

تجرّأتُ "رشىً؟"

قال "نوعاً. سأكون أول من يعترف بأن هذا ليس أكبر ما نتورّط فيه بالعالم. لكنه في مجال عملي، ضرورة".

"آه، ولو نجمَت عنه مشكلة؟"

"لا يوجد ما ينافي القانون في إنشاء شركة".

"إنني أتكلّم عما ترمي إليه الشركة".

أخذ سيجارة من جيبه، أشعلها بكبريت. ثم نفث الدخان في الهواء فوقه.

"لن تنجُم مشاكل. وإن نجمَت، فسيعرف أيّ امرئ له نصف عقل أنكَ أعرت اسمكَ فقط. طلب منكَ حماكَ أن تدعه يستخدم اسمكَ، وفعلتَ. لن يُحمّلكَ أحد مسؤولية".

لم أنبس بكلمة، فترة. "وإلى أين ينتهي المآل بهذه الرِشى كلّها؟"

"أُفضّل ألاّ تعرف".

"بل احكِ لي المزيد عن "قوى السوق" المزعومة. تدخل جيب أحد السياسيين؟"

قال "قليلاً".

"مسؤول حكومة؟"

سحق حماي سيجارته في الطفاية. "لن يكون ابتزازاً، لن يكون. قد يوقفونني أنا".

"لكن أيفعلها كلّ من في مجالكَ؟"

قال "يُفترض". وتألّم وجهه. "لكن ليس إلى درجة التوقيف".

"وماذا عن كبار السوق؟ يتعاونون وقت شراء الأراضي، هه؟"

"لا أتوافق معهم. عموماً، لا أحاول حكر السوق. مربح، لكني لا أفعله. وكما قلتُ، أنا مجرد معمّر بسيط".

تأوّهتُ عميقاً.

قال "كنتُ أعلم أنه لن يُعجبكَ".

"لا يهمّ إن أعجبني أم لا، فقد شملتني في معادلتكَ ومضيتَ للأمام، صحيح؟ على فرَضيّة أني سأوافق".

ضحك في وهن "أخشى أنكَ على حق".

تأوّهتُ ثانية. "أبي، لأقل لكَ الحقيقة، فأنا لا أحبّ هذه الأشياء. لا أقصد أنها تنافي القانون، أو أيّ شيء. لكني امرؤ عاديّ يعيش حياة عادية. علاوة، لا أودّ التورّط في معاملات باطنية".

قال "أعي ذلك. فاترك الأمر كلّه لي. لن أُخلّيكَ معلّقاً حتى تجفّ. وإن فعلتُ، فقد تتورّط يـكيـكو والأولاد أيضاً. ولستُ مستعدّاً لحدوث ذلك. تعرف كم تعني بالنسبة لي ابنتي وحفيدتاي".

أومأتُ. لم أستطع كلياً رفض طلبه. مما أثار حزني. قليلاً قليلاً، سيوقعني العالم من خارجي في أُحبولة. هذه هي الخطوة الأولى؛ أوافق أولاً، ثم يأتي شيء آخر.

تناولنا المزيد. شربتُ شاياً، بينما راح حماي يصبّ الساكي بمعدّل أسرع.

سأل فجأة "كم عمركَ الآن؟"

"سبعة وثلاثون".

تطلّع إليّ في ثبات.

قال "سبعة وثلاثون هو العمر الذي تستطيع فيه اللعب بذيلكَ. فالعمل يمضي على ما يرام، وثقتكَ حاضرة. لذلك تأتيكَ النساء كثيراً، هه؟"

ضحكتُ، أتفحّص تعبيراته "في حالتي، ليس بهذه الكثرة". لثانية أصابني الذعر، قد يكون اكتشفَ علاقتي وشيماموتو، مما دعاه لاستدعائي هنا اليوم. لكنه كان يُلمّح قليلاً في كلامه.

"وأنا في عمركَ، كنتُ ألعب بذيلي قليلاً. لا أقول لكَ ألاّ تُقيم علاقات. فمن الغريب إليّ قول شيء كهذا لزوج ابنتي، لكني أظنّ أن نزوة أو اثنتين على الهامش لن تجلبا ضرّاً. بل ستُفيدانك. اجعله خارج السياق، بين الحين والآخر، فهو مما يزيد غنيمة حياتكَ؛ ستركّز في عملكَ أيضاً. ولو

كان عليكَ أن تنام مع نسوة أخريات، فلن أخبر واحدة تعرفها. اللعب بالذيل مسموح من جهتي، لكن كن حريصاً في تخيّر ضجيعاتكَ. لو تورّطت مع شخص خطأ، فستقلب حياتكَ. رأيتُه حاصلاً مليون مرة".

أومأتُ. وتذكّرتُ فجأة سماعي من ميكيكو أن أخاها وزوجته ليسا على وفاق معاً. فأخوها، وهو أصغر منها بسنة، له صديقة ولا يعود للبيت كثيراً. فتصوّرتُ قلق حماي على ابنه الأكبر، وهو ما دعاه لاستدعائي هنا.

"عموماً، لا تتورّط مع المدنّسات. إن فعلت، فسترى نفسكَ مدنساً. وإن لعبت بذيلكَ مع امرأة غبية، فستصبح أيضاً غبياً. وهو ما لا يعني بأن تتورّط مع امرأة من طبقة عالية. فيصعُب عليكَ أن تعود إلى من تنتظركَ في البيت. تعي ما أقول؟"

جاوبتُ "أظنّ".

"طالما أنكَ تحتفظ بأشياء في بالكَ، فستظلّ بخير. أولاً، لا ترفع من مكانة المرأة. هذا خطأ مبين. ثانياً، لا يهم ما تفعل، لكن عُد للبيت قبل الثانية صباحاً. بعد الثانية صباحاً، نقطة اللاعودة. وأخيراً، لا تستعمل أصحابكَ أعذاراً لتغطية علاقاتكَ. فقد تُكتشف، ولو حدث، آه، فلن تجد أمامكَ الكثير لتفعله. ولا حاجة أن تخسر صاحباً أثناء هذه العملية".

"يبدو أنكَ تتحدّث عن تجربة".

قال "عشتُ هذا. يستفيد المرء من التجربة وحدها. هناك من لا يستفيدون، وأعرف أنكَ لستَ منهم. فلديك عين فاحصة، وهناك ما تُعلّمكَ إياه التجربة وحدها. جئتُ إلى حانتيكَ مرّتين، واتّضحت لي المسألة. تعرف كيف تستأجر ناساً موهوبين، كما تعرف كيف تعاملهم جيداً".

كنتُ صامتاً، أنتظره أن يواصل.

"ولديكَ عين واعية لاختيار زوجة. أرى أن يكيكو تعيش معكَ حياة سعيدة. كما أن ابنتيكَ رائعتان. أنا ممتنّ لكَ".

هو سكران قليلاً، كما أظنّ. لكني لم أقل كلمة.

"قد لا تعرف، أن يكيكو حاولت الانتحار، مرة. لقد أخذت جرعة زائدة من حبوب منوّمة. فأسرعنا بها المستشفى، ولم تستردّ الوعي إلا بعد يومين. كنتُ متأكّداً من أنها لن تنجو. فجسمها كان ثلجاً، ولا تكاد تتنفّس. فكّرتُ، إنها هالكة. شعرتُ كأن العالم حولي قد انهار".

رفعتُ بصري إليه. "متى هذا؟"

"وهي بالثانية والعشرين. بعد تخرّجها في الجامعة. بسبب رجل. أحمق حقيقيّ، به ارتبطت. تبدو يكيكو هادئة حقاً، لكن دواخلها صلبة. وذكية. لهذا لا أتصوّر لماذا تورّطت مع رجل كهذا". ومال على عمود في الحجرة ذات الطراز التقليديّ التي كنا فيها، ووضع سيجارة بين شفتيه، أشعلها. "آه، كان رجلها الأول. في أول مرة، كلّ امرئ يقوم بأخطاء. مع ذلك، كانت ليكيكو صدمة هائلة. فحاولت قتل نفسها. ظلّت بعدها بزمان طويل، لا تتعاطى مع الرجال. دائماً منسحبة، ثم انقطعَت عن الكلام مع الناس، وبقيت مستكنّة في البيت. لكن بمجرد أن صادفتكَ، بدأت تبتهج. دارت دورة كاملة. أذكر أنكما لقيتما بعضكما البعض في رحلة؟"

"صحيح. في يتسوجاتاكي".

"لم أدفعها قسراً للخروج من الباب. تقريباً. فكّرتُ قد ينفعها السفر".

فأومأتُ. قلتُ "لا علم لي بمسألة الانتحار".

"كنتُ أظنّ أنه يُفضّل ألاّ تعرف، فلم أذكره قطّ. لكن حانت الذروة كي تعرف. فكلّ منكما سيظلّ للآخر فترة طويلة، والأفضل أن تعرف

كلّ شيء؛ حلوه ومرّه. كما أن هذا كان يا ما كان". وأغمض عينيه نافخاً نفثة دخان في الهواء. "عجيب أن يقول والدها هذا، هه، لكنها امرأة جيدة. لقد لعبتُ بذيلي كثيراً، وأخبُر بعينيّ النساء. سواء كانت ابنتي أم لا، أستطيع الحكم على النسوة الجميلات. إن ابنتي الصغرى أجمل بكثير، لكن يكيكو أفضل. وأنتَ تستطيع الحكم جيداً على الناس".

ظللتُ صامتاً.

"ليس لكَ أخوة أو أخوات؟"

قلتُ "لا".

"تظنّ أني أحبّ أولادي الثلاثة بدرجة متساوية؟"

"ليس عندي فكرة".

"وما رأيكَ؟ هل تحبّ ابنتيكَ بالدرجة نفسها؟"

"طبعاً".

قال "لأنهما صغيرتان بعد. فانتظر على أن تكبرا. قد تحبّ هذه أولاً، ثم تبدأ بعدئذ في الميل نحو الأخرى. وستفهم ذات يوم ما أعنيه".

قلتُ "حقاً؟"

"لم أقلها لهم أبداً، لكن من بين أولادي الثلاثة أحبّ يكيكو أكثر. أحسّ بالأسى على الآخرين وأنا أقول هذا، لكنه الحال. أنا ويكيكو على وفاق دائم، وكلّي وثوق بها".

أومأتُ.

"لديكَ عين فاحصة للناس، وتلك موهبة رائعة عليك بتدليلها. أنا حالة ميئوس منها بنفسي، لكن على الأقلّ ساعدتُ في تربية ما ليس ميئوساً منه نوعاً".

عاونتُ حماي السكران الآن في دخول سيارته المرسيدس. فغطس للوراء بالمقعد الخلفيّ، مدّد ساقيه مفرودتَين وأغمض عينيه. أشّرتُ إلى أُجرة ورحتُ للبيت. بمجرد أن وصلتُ، ودّت يكيكو سماع سبب غدائنا.

قلتُ "لا شيء مهمّ حقاً. يريد والدكِ أن يكون معه شخص وهو يشرب. فمآله إلى السُكر الكامل. أتعجّب، كيف يعود للعمل وهذه حاله".

فضحكت يكيكو "دائماً هكذا. لديه مشروب على الغداء، ثم يأخذ غفوة ساعة على الكنبة في مكتبه. والشركة لم تدخل مرحلة تصفية بعد. فلا تقلق عليه".

"لا يبدو أنه كان يضبط مشروبه كالعادة".

"لا، لا يفعلها. قبل وفاة أمي، كان يشْرب كالسمكة، ولا يظهر عليه مطلقاً. كان صلباً. لكنه لم يعد. فكلّ امرئ يكبُر".

دبّرَت وعاء قهوة، وجلسنا إلى مائدة العشاء نشربه. قرّرتُ ألاّ أحكي عن الشركة الموهومة، وطلب والدها اسمي. ظنّت أنه ضايقني، ولم تسترح. قد تقول يكيكو بلا شكّ، صحيح أنكَ استدنتَ مالاً مَن أبي، لكن ليس له علاقة بما فعل. وأنتَ قمتَ بردّه إليه، مع الفوائد، هه؟ لكن الموقف لم يكن بمثل هذه البساطة.

كانت إبنتي الصغرى في نوم عميق بغرفتها. حين أنهيتُ قهوتي، أغويتُ يكيكو في الذهاب إلى الفراش. تجرّدنا عاريَين، وحضن كلٌّ الآخر عنيفاً، في بهرة الشمس. أخذتُ وقتي في تسخين جسمها، ثم دخلتُها. لكن طول الوقت وأنا فيها، كنتُ أرى شيماموتو. فأغمضتُ عينيّ، شعرتُ أني في حضن شيماموتو. وقذفتُ بانفعال شديد.

أخذتُ حمّاماً، ثم عدتُ للفراش أنام وهلة. كانت يكيكو قد لبست فعلاً، لكنها راحت تحت الأغطية، بعد أن انسللتُ بالفراش، ووضعت

شفتيها على قفاي. رقدتُ صامتاً وعيناي مفتوحتان. سأظلّ أمارس معها الجنس، طالما أفكّر بامرأة أخرى، والذنب يضغط عليّ.

قالت يوكو "تعرف، أنا أحبكَ فعلاً".

قلتُ "تزوّجنا من سبع سنوات، ولنا طفلان. حان الوقت لتزهقي مني، ألا تظنين؟"

"ربما. لكن لا أزال أحبكَ".

فحضنتُها لصقي. وبدأتُ أعرّيها. نزعتُ بعنف سُترتها وجونلتها، ثم لباسها.

سألت مندهشة "يوه! لم تخطّط لما أعتقد أني خطّطتُ له، هه؟"

قلتُ "طبعاً".

قالت "إنه وقت تدوين يومياتي اليوم".

وحاولتُ جاهداً، هذه المرة، ألاّ أفكّر في شيماموتو. فحضنتُ جسم يوكو، أتطلّع في وجهها فقط، وأركّز. قبّلتُ شفتيها، رقبتها، وثدييها. ثم قذفتُ داخلها. وفيما بعد، حضنتُها زمناً طويلاً.

سألت، وعيناها عليّ "أنتَ بخير؟ حدث شيء بينكَ وأبي اليوم؟"

جاوبتُ "لم يحدث. ولا شيء. فقط أحسّ أنيّ أودّ البقاء هكذا فترة".

قالت "كُن ضيفي". حضنَتني بشدّة، وأنا لا أزال فيها. فأغمضتُ عينيّ، أدفع جسمها عني، إن لم أفعل، لتلاشيتُ في العدم.

وأنا أحضنها، تذكّرتُ محاولة الانتحار التي بلّغني بها أبوها. كنتُ موقناً من أنها لن تفعلها. فهي ميؤوس منها، كما ظننتُ. لو اتّخذت الأمور أيّ منحىً سيء، لما حضنتُ جسمها على هذا النحو. وبرقّة لمستُ كتفها، شعرها، وثدييها. كانت حقيقية؛ حنوناً ناعمة. تحت راحتيّ، أحسّ الحياة فيها. ليس لأحد أن يقول كم ستطول هذه الحياة. مهما كان شكلها

فهي إلى ختام ذات وهلة. يـكـيـكـو. هذه الغرفة. هذه الحيطان، هذا السقف، هذه النافذة. قد تختفي كلّها قبل أن نعرف. فجأة هلّت على بالي، ايزومي. ذلك الذي آذى يـكـيـكـو عميقاً، قد فعلتُ الشيء نفسه مع ايزومي. وصدف وأن رأيتُ يـكـيـكـو بعدئذ، لكن ايزومي ظلّت وحيدة.

قبّلتُ رقبة يـكـيـكـو الناعمة.

قلتُ "سأروح في النوم قليلاً. ثم أمضي لمدرسة الحضانة أحضرها".

فقالت "نومة هنيئة".

*

نمتُ فترة قصيرة. وحين فتّحتُ عينيّ، كانت بعد الثالثة عصراً. من نافذة غرفة النوم أرى مقبرة آوياما. جلستُ في كرسيّ جنب النافذة، أحدّق فيها زمناً. فتبدّى عدد من الأشياء مختلفاً الآن، لأن شيماموتو ظهرت ثانية في حياتي. ثم سمعتُ يـكـيـكـو تحضّر العشاء بالمطبخ. ترنّ الأصوات فارغة في أذنيّ، كتلك التي تسري بصفّارة من عالم بعيد.

أخرجتُ سيارتي BMW من موقف تحت الأرض، نحو المدرسة، كي أحضر ابنتي. لديهم برنامج خاصّ ذلك اليوم، وكانت حوالي الرابعة حين ظهرَت على البوّابة. قد تعوّل دائماً على خطّ سيارات باذخة لامعة هناك: ساب، جاكوار، حتى ألفا روميو التقليدية. تخرج من السيارات أمهات شابات بمعاطف تبدو ثمينة، لتسلّم أولادهن، يودعنهم بالسيارات، ثم يسقن بسرعة. ابنتي هي الطفلة الوحيدة التي يأتي أبوها لتسلّمها. حين رأيتها، ناديتُ باسمها، ولوّحتُ. فلوّحت بيدها الصغيرة وهي تركض نحوي. ثم رأت بنتاً صغيرة في مرسيدس زرقاء 260E، فجرَت إليها مباشرة، وهي تهتف بشيء. كانت الفتاة تلبس كاباً صوفياً أحمر، وتميل من نافذة السيارة. وتلبس أم الفتاة معطف كشمير أحمر ونظّارة

شمسية كبيرة. حين ذهبتُ هناك وأخذتُ بيد ابنتي، دارت إليّ المرأة، تبتسم وسع شفتيها. فرددتُ الابتسامة. جعلني معطفها الأحمر والنظّارة الشمسية أفكّر في شيماموتو. شيماموتو التي تتبّعتها من شبيا إلى آوياما.

قلتُ "أهلاً".

فقالت "أهلاً".

المرأة صاعقة. لا تزيد عن خمس وعشرين سنة. مسجّل سيارتها يبثّ أغنية فرقة توكن هيدز "دمّروا البيت". وبالمقعد الخلفيّ كيسا تسوّق ورقيان من كينوكنيا. لها ابتسامة بديعة. همست ابنتي لحظة لصاحبتها الصغيرة، ثم ودّعتها. فردّت الأخرى الوداع. دفعت الزرّ، تغلق نافذة السيارة. فأخذتُ يد ابنتي، وسرنا حيث سيارتي.

سألتُ "كيف مرّ يومكِ؟ حدث شيء جيد؟"

فهزّت رأسها بتوكيد لافت. قالت "لا شيء على الإطلاق. كان فظيعاً".

قلتُ "وقت عصيب لكلينا"، وملتُ عليها أُقبّل جبينها، فعبس وجهها بطريقة عبوس أصحاب المطاعم الفرنسية المتكبّرين حين تُسلمهم بطاقة دفع أميركان اكسبريس الفورية. قلتُ لها "غداً، بالتأكيد، سنكون بخير".

ووددتُ تصديق ذلك. أن أفتح عينيّ غداً، فأرى العالم جديداً، وكلّ مشكلة لها حلّ. لكني لم أبلع هذا السيناريو. لأن عندي زوجة وبنتان. وأنا مُغرم بشخص آخر.

قالت ابنتي "أبي؟ أريد أن أركب حصاناً. هل تشتري لي حصاناً ذات يوم؟"

قلتُ "طبعاً. ذات يوم".

"ومتى هذا اليوم؟"

"حين يدّخر أبوكِ بعض الفلوس. سأشتري لكِ حصاناً".

"هل عندكَ بنك مكنوز، يا أبي؟"

"نعم، بنك كبير جداً. كبير مثل هذه السيارة. إن لم أدّخر فلوساً كثيرة، فلن أستطيع شراء الحصان لكِ".

"لو طلبنا من جدّي، تظنّه سيشتري لي حصاناً؟ جدّي غنيّ".

قلتُ "صحيح. جدّكِ عنده بنك مكنوز كبير مثل هذه البناية التي هناك. فيه أطنان فلوس. لكن على قدر كُبره محكَم الغلق، فيصعُب سحب الفلوس منه".

فكّرت ابنتي فيه وهلة.

"لكن هل أطلب من جدّي، بعد فترة، أن يشتري لي حصاناً؟"

"طبعاً، اطلبي منه. من يدري، فقد يشتري لكِ واحداً".

تكلّمنا عن الأحصنة طيلة العودة. ما لون الحصان الذي تحبه. ماذا ستمنحه اسماً. لأيّ مكان ستركبه. أين ينام الحصان. ثم وضعتها في المصعد، متجّهاً إلى العمل. ماذا سيأتي به الغد؟ تساءلتُ. أغمضتُ عينيّ، وكلتا يديّ على المقود. لم أكُ أحسّ بأني في جسمي؛ كان جسمي مجرّد حاوية مؤقّتة معزولة، صَدَف وأني استعرتُها. ماذا سيحدث معي غداً، لا أعرف. أشتري لابنتي الحصان. واتّخذت الفكرة منحىً عاجلاً غير متوقّع. عليّ أن أشتريه لها قبل انقضاء العمر. قبل أن يتهاوى العالم إلى مِزَق.

-١٢-

من وقتها حتى الربيع، ظللنا أنا وشيماموتو نرى بعضنا الآخر كلّ أسبوع تقريباً. تقف جنب إحدى الحانتين، وغالباً عند روبين نست، بعد التاسعة. تجلس إلى البار، تشرب مزيجين ثم ترحل قُرب الحادية عشرة. كنتُ أجلس جنبها ونتكلّم. لا أعرف ما دار في فكر مُستخدميّ، لكن لم أهتمّ. كما كنا ونحن بالمدرسة معاً، حيث لم أدع ما كان يفكّر فيه أصحاب المدرسة يعنيني في شيء.

تتّصل بين حين وآخر تدعوني لتناول الغداء. نرتّب لقاءنا، غالباً، داخل مقهىً في اومت ساندو. نتناول وجبة خفيفة، ثم نسير. نظلّ معاً ساعتين، ثلاثة على الأكثر. ووقت رحيلها، تُحدّق في ساعتها ثم تبتسم. تقول "آه، الأفضل أن أذهب". لا أقرأ أيّ انفعالات وراء هذه الابتسامة. ما إن كانت تحسّ بالحزن أم لا على الرحيل، أو ربما الراحة من تخلّصها مني، ليس عندي فكرة. لا أستطيع حتى تمييز إن كان عليها حقاً الرجوع للبيت.

على أيّ حال، طيلة الساعتين اللتين نكون فيهما معاً، لا نكفّ عن الكلام. مع ذلك، ولا مرة، دخلت أجسامنا في تماسّ. ولا مرة وضعتُ ذراعي حول كتفها، أو حتى كما كنتُ أتوق مسكتُ يدها.

بالعودة إلى شوارع طوكيو، تتّخذ شيماموتو ابتسامتها المعهودة الدافئة الجذابة. لا تُظهر المزيد من فوران الانفعالات العنيفة، مثل يوم فبراير البارد في يشيكاوا. راح القُرب الدافئ المتولّد في ذلك اليوم. فلم نذكُر قطّ، كأنه باتّفاق غير منطوق، رحلتنا القصيرة الغريبة.

ونحن نسير جنباً لجنب، أتساءل أيّة مشاعر يحملها قلبها. وإلى أين تتداح بها مثل هذه المشاعر. كنتُ أتطلّع أحياناً في عمق عينيها، لكني لا

أتبيّن غير صمت رقيق. كالسابق، كان خطّ جفنيها يجلب على بالي أفقاً شارداً. بعد طول انتظار أتفهّم عزلة ايزومي حين نخرج معاً. شيماموتو لها عالم خاص صغير. لها عالم وحدها، ليس لأحد أن يدخله. مرة، بدأ الباب المُفضي إلى هذا العالم يفتح شقّاً. ثم انغلق.

أحسستُ ثانية كأني ذو الثانية عشر، العاجز المحتار. لم يكن عندي فكرة عما عليّ فعله، وعما عليّ قوله. بذلتُ جهدي لأبقى هادئاً، أستخدم دماغي. لكن دون طائل. كلّ ما قلته وفعلته، كان خطأ. كلّ انفعال تستوعبه تلك الابتسامة المشعّة. تُبلغني ابتسامتها، لا تقلق. كلّ شيء سيمضي بخير.

كنتُ كلياً في ظلام بشأن حياة شيماموتو. لم أعرف حتى أين تسكن. أو مع من. ما إن كانت متزوّجة، أم لا. الشيء الوحيد الذي عرفته، في فبراير الماضي، كان لها طفل، ومات ثاني يوم. وأنها لم تمارس عملاً قطّ. كما تلبس دائماً أغلى الملابس والكماليات، ما يعني أن معها كنزاً من المال. هذا ما أعرفه كلّه. قد تكون متزوّجة حين كان لها وليد، لكني لم أتأكّد. فآلاف المواليد تولد يومياً خارج نطاق الزوجية، أليس كذلك؟

بمرور الزمن، بدأت شيماموتو تُبلغني القليل عن مرحلة المتوسّطة وأيام الثانوية. لا توجد صلة مباشرة بين تلك الأيام وحياتها الآنية، فلا يعنيها أن تتكلّم عنها. اكتشفتُ كم تحسّ بالعزلة إلى حدّ فظيع. وهي تكبُر، تبذل أقصى جهدٍ لتنسجم مع كلّ ممّن حولها، دون أن تُبدي أعذاراً. تقول لي "لو بدأت تُبدي أعذاراً، فلن تنتهي من الأمر قطّ. لا يمكن أن أعيش هذا النوع من الحياة". لكن الأشياء لا تمضي كما يبتغي المرء. فوجهة نظرها أعطت دفعة فقط لعمليات سوء تفاهم غبية، وهو ما كان يؤذيها

في العمق. انزوت على نفسها، في ثبات. تستيقظ صباحاً، تتقيأ، وتأبى الذهاب للمدرسة.

أرتني صورة أُخذت من بداية المدرسة الثانوية. تجلس على كرسيّ في حديقة، حولها عبّاد شمس مزدهر. كان الوقت صيفاً، وتلبس شورتاً قطنياً أزرق وقميصاً أبيض. فائقة الجمال. بموازاة الكاميرا، تبتسم بوسع شفتيها. بالمقارنة مع ابتسامتها الآن، تبدو واعية بذاتها قليلاً. حتى يومئذ، كانت ابتسامة رائعة. ابتسامة، بسبب من قلقها، تؤثّر في الناس جميعاً. وهي طبعاً ليست ابتسامة منعزلة، تقضي أيامها في بؤس.

أخبرتها "بالحكم على هذه الصورة، أتبيّن أنكِ كنتِ أسعد فتاة في العالم". .

هزّت رأسها ببطء. فظهرت خطوط فاتنة بزاويتَي عينيها؛ ونظرت كمن يسترجع مشهداً بعيداً من الماضي. "هاجيمي، لا تحكم بشيء من الصور. فهي مجرد ظلّ. وأناي الحقيقية بعيدة. لا تتبدّى أبداً في صورة".

جلبت الصورة في صدري ألماً. أدركتُ كم ضاع عليّ من زمن فظيع. سنوات ثمينة لا تُعوّض، لا يهمّ كم كافحتُ لاستردادها. فالزمن موجود هناك فحسب، في ذلك المكان. حدّقتُ في الصورة زمناً طويلاً جداً.

سألت "ما الشيّق فيها؟"

رددتُ "أحاول ملء الزمن. مضى خمسة وعشرون عاماً مذ رأيتكِ آخر مرة. أودّ ملء هذه الفجوة، وإن قليلاً".

فابتسمت، تنظر إليّ في مزاح، كمن في وجهه شيء عجيب. قالت "غريبة. تودّ ملء فجوة فارغة من الزمن، بينما أودّ الحفاظ عليها فارغة كلياً".

خلال المتوسّطة والثانوية، لم يكن لها صديق حقيقيّ. كانت فتاة جميلة، تلفت انتباه الشبّان، لكنها نادراً ما تلاحظهم. خرجَت مع قلّة، لكن لوقت قصير.

"يصعُب أن تحبّ أولاد تلك السنّ. كما تفهم. فالمراهق، فظّ أنانيّ. كلّ ما يفكّر فيه أن يمدّ يده أعلى جونلة فتاة. فخاب أملي. كنتُ أريد فعل ما اعتدنا عليه".

"آه، لكن وأنا أيضاً بالسادسة عشرة، لم أكن أفرُق عنهم؛ كنتُ الفظّ الأنانيّ، أحاول مدّ يدي أعلى جونلة فتاة. هكذا، بإيجاز".

قالت، تبتسم "أفضَل أني لم أصادفكَ حينئذ. لنودّع الثانية عشرة، ونلتقي في السابعة والثلاثين... أظنّ هي الطريقة المثلى لنا، على أيّ حال".

"عجيب".

"ستفكّر الآن في أشياء غير ما تحت جونلة فتاة، أليس كذلك؟"

قلتُ "قليلاً. لكن لو قلقتِ، فيُستحسن أن تلبسي بنطلوناً المرة القادمة!".

حدّقت شيماموتو في يديها، تريحهما برأس الطاولة، ثم ضحكت. لا تلبس دبلة. أسورة وساعة جديدة كلّ مرة نتقابل فيها. وحلق. لكن لا دبلة.

واصلت "لم أكن أريد وضع حدّ لأيّ ولد. تعرف ما أعنيه. فهناك أشياء كثيرة مما لا أستطع فعله. القيام بنزهة خلوية، السباحة، التزلّج، التزحلق، رقص في ديسكو. كان مجرد السير يُشقيني. كلّ ما يمكن فعله؛ الجلوس مع امرئ، الكلام، وسماع الموسيقى، وهو ما لا يستطيع أولاد تلك السنّ تحمّله طويلاً. وكرهتُ ذلك".

كانت تشرب بِرييه مع ليمون معصور. ظهيرة دافئة بمناسبة مارس. ويمرّ شبّان في الشارع، يلبسون قمصاناً بأكمام قصيرة.

"لو خرجتُ معكَ حينئذ، لعرفتُ أني في النهاية سأضع حداً لك. كنتَ ستتشبّع مني. وربما أردتَ أن تنشط أكثر، أن تأخذ نطّة للركض في العالم الواسع. وربما لمّ أكن أهلاً لتحمّل ذلك".

قلتُ "شيماموتو، مستحيل. لم ينفد صبري معكِ قطّ. فلدينا شيء خاصّ. لا أستطيع تفسيره بالكلام، لكنه حقيقيّ. شيء خاصّ، ثمين".

فنظرت إليّ عن قرب، وتعبيراتها ثابتة.

واصلتُ "لستُ شخصاً عظيماً. ولا عندي الكثير لأتباهى به. اعتدتُ كوني منطوياً إلى حدّ كبير، حسّاساً غروراً. ربما لم أكن أناسبكِ. لكن هناك ما أنا متأكّد منه: أني لا أضجر منكِ أبداً. وهو ما يجعلني، على الأقلّ، امرأً مختلفاً عمن عرفتِ من الآخرين. بهذا المقام، أنا في الواقع شخص خاص بالنسبة لكِ".

غيّر تحديق شيماموتو ثانية من وضع يديها على الطاولة. فردت أصابعها طفيفاً، كمن يتفحّص إن كانت عشرة.

بدأت "هاجيمي، الحقيقة الحزينة أنه ليس لأيّ شيء أن يعود للوراء. ولو بدأ يتقدّم، فلا يهمّ ما ستفعله، فهو لن يعود أدراجه كما كان قطّ. ولو حاد شيء صغير، فهذه هي الكيفية التي سيظلّ فيها للأبد".

*

اتّصلَت، مرة، تدعوني إلى كونشرتو "ليست" للبيانو. كان العزف المنفرد لأشهر عازف بيانو من أمريكا الجنوبية. صفّيتُ جدولي وذهبتُ معها إلى صالة الموسيقى في اينو بارك. عرض مبهر. تقنية العازف المنفرد رائعة، وسريان الموسيقى رقيق عميق، فأثارت انفعالات العازف الحارّة الجميع. لكن، حتى وعيناي مغمضتان، لم تجرفني الموسيقى. هناك

حاجز رفيع وقف بيني والعازف، ولا يهمّ كم حاولتُ، فلم أستطع الانتقال للطرف الآخر. حين بلّغتُ شيماموتو هذا بعد الحفل الموسيقيّ، وافقتني.

سألَت "لكن ما خطأ العرض؟ كنتُ أظنّه رائعاً".

قلتُ "ألا تذكرين؟ الاسطوانة التي اعتدنا سماعها، كان فيها - بنهاية الحركة الثانية - خدش بسيط نسمعه. بوشي! بوشي! هكذا، ودون هذا الخدش، لم أستطع التوافق مع الموسيقى!".

ضحكت شيماموتو. "ليس لي أن أسمّيه تقديراً فنياً".

"ليس له شأن بالفن. دعي نسراً أقرع يلتهم الفن، فلن يَضيرَني في شيء. لا يعنيني ما قد يقوله أيّ فرد؛ فأنا يعجبني هذا الخدش!".

اعترفَت شيماموتو "قد تكون على حقّ. لكن ما بال النسر الأقرع؟ أعرف النسور العادية - فهي تلتهم الجيف. لكن النسور القُرع؟"

أثناء عودتنا للبيت بالقطار، وضّحتُ الفرق بكثير من التفصيل: يتحدّد الفرق من مكان مولدها، صياحها، فترات تزاوجها. "يعيش النسر الأقرع على التهام الفنّ. أما النسر العاديّ فيعيش على التهام جيف المجهولين. وهو اختلاف كليّ".

ضحكت، "أنتَ غريب!". وهناك بمقعد القطار، بدرجة طفيفة جداً، حرّكت من كتفها لتلمسني. المرة الواحدة الوحيدة، طيلة الشهرين الماضيَين، تلامس فيها جسمانا.

مرّ مارس ثم أبريل. وبدأت ابنتي الصغرى تروح مدرسة الحضانة. ومع غياب الطفلتين عن البيت، راحَت يوكيكو إلى عمل تطوّعيّ في جمعية، تمدّ يد العون في نُزل للأولاد المعوّقين. ووظيفتي، معظم الوقت، أن آخذ الطفلتين إلى المدرسة، ثم أتسلّمهما في العودة من جديد. وحين أنشغل، تتولّى زوجتي المَهمّة. ولدى رؤية الصغيرتَين تكبران، يوماً إثر يوم،

أحسستُ عمري يكبر. كانتا، من تلقاء نفسيهما، بغضّ النظر عن أيّ خطط أُضمرها لهما، وهما تكبران. أحبّ ابنتيّ، طبعاً. وقد جعلتني مراقبتهما تكبران أسعد مخلوق. أحياناً، مع رؤيتهما تكبران شهرياً، أحسّ بالقهر. كأن شجرة تدخل جسمي، تُمدّد جذورها، تفرش أفرُعها، وتضغط على أعضائي، عضلاتي، عظامي، وجلدي، ثم تشقّ طريقها للخروج. ويقمعني هذا أحياناً، فلا يعرف النوم سبيلاً إليّ.

كنتُ أقابل شيماموتو مرة بالأسبوع. ويومياً، آخذ البنتين للمدرسة، ذهاباً إياباً. ومرتين أسبوعياً، أمارس الحبّ مع زوجتي. منذ بدأتُ أرى شيماموتو ثانية، زادت ممارستي للحبّ غالباً مع يكيكو. دون حسّ بالذنب، مع ذلك. فأن أُحِبّ، وأُحَبّ، هي الطريقة المُثلى للمّ شتات نفسيْ.

سألتني يكيكو ذات ظُهر، بعد الجنس "تغيّرتَ. ماذا جرى لكَ؟ لم يخبرني أحد أنه حين يصل الرجل السابعة والثلاثين، يرتفع معدّله الجنسيّ إلى حافز أعلى".

جاوبتُ "لم يجرِ شيء. الطبع القديم نفسه".

فتطلّعت فيّ وهلة. وهزّت رأسها طفيفاً. قالت "أتساءل أحياناً عما يدور برأسكَ".

في وقت فراغي أسمع الموسيقى الكلاسيكيّة، وأُحدّق في مقبرة آوياما. لم أعد أقرأ كثيراً كما اعتدتُ. فقد ضاع تركيزي شَذَر مَذَر.

رأيتُ مرات تلك المرأة الشابة بمرسيدس 260E. كنا ننتظر خروج بناتنا من بوابة المدرسة، فنقف لتزجية كلام بسيط، نميمة، يفهمها فقط من يقطن آوياما. نصيحة عن سوبر ماركت تستطيع الوقوف عنده بسهولة، ومتى؛ أحدث ما يدور في مطعم إيطاليّ معيّن، قام بتغيير طبّاخيه ولم يعد يقدّم حالياً وجبات شهية؛ أخبار عن محلّ "ميدجا يا" حيث يقدّم

تخفيضاً على النبيذ المستورد الشهر القادم، ودواليك. فكّرتُ، اللعنة. أصبحتُ ربّة بيت نمّامة نمطية! لكن هذه الأشياء هي كلّ ما لدينا، عموماً.

*

منتصف أبريل، اختفت شيماموتو ثانية. آخر مرة رأيتها، جلسنا في روبين نست. قبل العاشرة، جاءت مكالمة من حانتي الأخرى، عليّ الاعتناء بأمر. قلتُ "سأعود بعد ثلاثين دقيقة أو نحوها".

فقالت، تبتسم "لا بأس. سأقرأ كتاباً ريثما تعود".

هرولتُ أستقصي المشكلة، ثم أسرعتُ للرجوع، لكنها لم تعد هناك. الساعة، بعد الحادية عشرة بقليل. على البار، بظهر علبة الثقاب، كتبت: "قد لا يُقدّر لي المجيء هنا فترة، مُحتمل. سأذهب للبيت الآن. وداعاً. خلّ بالكَ".

سأكون في فراغ فضفاض أياماً. فوسّعتُ خطوتي للمنزل، أهيم في الشوارع على غير هدىً، وذهبتُ لتسلّم ابنتيّ مبكراً. تكلّمتُ مع سيدة المرسيدس 260E. وذهبنا إلى مقهىً قريب لتناول فنجان قهوة، والنمّ كالمعهود عن حالة الخضار في سوق كينوكنيا، البيض المخصّب في بيت الأطعمة الطبيعية، التخفيضات الرابحة لدى ميكي هاوس. كانت المرأة توالي أزياء المصمّم انابا يوشي، وقبل الموسم تطلب ما تريد من ملابس من الكتالوج. كما تكلّمنا عن مطعم سمك الأنكليس الرائع قرب مركز الشرطة في اومت ساندو، وقد بارت تجارته الآن. استمتعنا بالكلام. كانت المرأة منفتحة وأكثر وداً عما بدت عليه في البداية. ليس لأني منجذب إليها جنسياً. فقد كنتُ محتاجاً إلى أحد؛ أيّ أحد، للكلام معه.

ما أريده مجرّد كلام فارغ مسالم، كلام لا يؤدّي إلى مكان غير العودة إلى شيماموتو.

حين أنفض يدي مما أفعله من أشياء، أذهب للتسوّق. مرة، في نزوة، ابتعتُ ستة قمصان. ابتعتُ لعباً ودُمىً لابنتيّ، وكماليات إيكيكو. وقفتُ مرّتين بصالة عرض BMW، لفحص موديل M5؛ ولم يكن في نيتي فعلاً شراء سيارة، لكني خلّيتُ أحد مندوبي المبيعات يشرح باستفاضة.

أسابيع مشوّشة كهذه، ثم وجدتُ نفسي أُركّز من جديد. فقرّرتُ، لن أمضي لمكان بسرعة. اتّصلتُ بمصمّم ومختصّ ديكور داخليّ، لمناقشة تغيير موديل الحانتين. فات موعد تجديدهما قليلاً، وقد فات زمان التفكير بجدّية في إدارتي لعملي. كما يفعل الناس، حان أن أُخلّي الحانتين على حدة، وأُدبّر التغيير. لو غرقتُ في البيئة نفسها، لاكتأبت وتبلّدت. يهبط مستوى طاقتكَ فجأة، وعنيفاً. حتى القلاع في الهواء تتحسّن بطبقة دهان جديدة. بدأتُ بالحانة الأخرى، وأبقيتُ روبين نست فيما بعد. بدأتُ بإزالة مظاهر الأناقة المفرطة، فحين تبلغ الحانة، تنزعج من آخرها، تبدو لكَ مثل مشغل عمّال. كما يحتاج النظام السمعيّ وتكييف الهواء إصلاحاً، وقائمة الطعام، قمتُ بتغييرها بالكامل. قابلتُ مستخدميّ، وتوصّلتُ إلى قائمة طويلة من مقترحات الإصلاح. وبتفصيل كبير، قدّمتُ للمصمّم رؤيتي لما ينبغي أن تكون عليه الحانة، وحثثته على ترسيم خطّة، ثم أعدته إلى رقعة الرسم لتجسيد المظاهر التي هلّت على بالي في تلك الأثناء. كرّرنا هذه العملية مرات. اخترتُ المواد، ثم جعلتُ المقاولين يصوغون التقديرات، يعيدون ضبطها مع ميزانيتي. فانفقتُ ثلاثة أسابيع وأنا أطوف المحلات عبر طوكيو بحثاً عن أفخم

صابون سائل بالعالم. كلّ هذا جعلني مشغولاً. لكنه، عموماً، وعلى وجه الدقّة، ما أريد.

جاء مايو ثم راح، ومن بعده يونيو. ولا تزال شيماموتو غائبة. كنتُ على يقين من أنها راحت للأبد. قد لا يُقدر لي المجيء هنا فترة، محتمل؛ كتبت. "فترة" و"محتمل"، جعلني التلازم الغامض بينهما أعاني. ذات يوم ستظهر ثانية. لكني لم أعد أطيق الجلوس بمكان، وتسكين آمالي وأحلامي بوعود مبهمة. فكّرتُ، لو ظللتُ هكذا، فسينتهي بي المآل إلى أبله هاذٍ، فركّزتُ في جعل نفسي مشغولاً. بدأتُ الذهاب إلى حمّام السباحة كلّ صباح وكنتُ أسبح ألفَي متر دون توقّف، ثم أمضي إلى النادي الصحيّ بالدور العلويّ لرفع بعض الأثقال. مرّ أسبوع، وبدأت عضلاتي تنتفض. ذات يوم، وكنتُ منتظراً في ظلّ نور أحمر، أحسستُ بقدمي اليُسرى تتخدّر، ولم أستطع وضعها على الدوّاسة. ثم اعتادت عضلاتي، أخيراً، على التمرين. الجهد الفيزيقيّ الشاقّ لم يدع لي فُسحة للتفكير، كما أن جسمي المتحرّك دائماً ساعدني في التركيز على توافه الحياة اليومية. أحلام اليقظة محظورة. فبذلتُ ما استطعتُ للتركيز فيما أفعل. أغسل وجهي، فأفكّر في غسل وجهي؛ أسمع موسيقى، فأكون كلّي موسيقى. كانت الطريقة الوحيدة التي استطعتُ بها البقاء.

في الصيف، كنا أنا ويكيكو نأخذ الصغار غالباً إلى شاليهنا في هاكون. بعيداً عن طوكيو، في ضواحي الريف، وجدت يكيكو والصغيرتان الراحة والسعادة. فكنّ يقطفن الأزهار، يراقبن الطير بالمنظار، يلعبن الشطرنج، يرشّشن بعضهن البعض في النهر. أو يرقدن في جنبات الحديقة. لكن لم يعرفن الحقيقة. أنه ذات يوم شتائيّ ثلجيّ، لو جثمت طائرتي بالأرض، فربما طردتهن جميعاً لأكون مع شيماموتو.

وظيفتي، عائلتي، أموالي؛ كلّ شيء، دون أن أرمش. وها أنا هنا، لا تزال رأسي ملؤها شيماموتو. شعوري بحضنها، تقبيل خدّها، لا يغادرني. لا أستطيع صرف صورة شيماموتو عن بالي، أو أحلّ محلها زوجتي. كما لا أعرف شيئاً عما تفكّر فيه شيماموتو، ولا يملك امرؤ دليلاً على ما كان في خيالي.

قرّرتُ تمضية باقي عطلتنا الصيفية في تشطيب موديل الحانة. بينما ظلّت يكيكو والبنتان في هاكون، رحتُ إلى طوكيو وحدي لأُشرف على العمل وأعطي تعليمات اللحظة الأخيرة. أعوم بحمّام السباحة، أتمرّن في النادي الصحيّ. وآخر الأسبوع أمضي إلى هاكون، أعوم بحمّام السباحة في فندق فوجيا مع ابنتيّ، ثم نذهب جميعاً للعشاء معاً. وليلاً، أمارس الحبّ مع زوجتي.

أقترب من نصف عمري بسرعة، دون أدنى شحوم يمكن الحديث عنها، دون شعر خفيف. كما لا توجد شَعرة بيضاء. ساعدني التمرين في حبس التدهور الفيزيقيّ المحتوم في جُحره. عِش حياة منضبطة، لا تُفرّط في شيء، وراقب وَجبتك: كان هذا شعاري. فلم أمرض قطّ، ويخمّن معظم الناس أني في مشارف الثلاثين.

تحبّ زوجتي ملمس جسمي. تُربّت عضلات صدري ومعدتي، وتُلاطف قضيبي وبيضتيّ. وكانت يكيكو، أيضاً، تروح للنادي الصحيّ كي تتمرّن بانتظام. لكن لا يبدو أنها استطاعت تنحيف نفسها.

تتأوّه "لا بد أني أكبُر. فوزني ينزل، لكن دورة الترهّل لا تزال".

أخبرتها "أحبّ جسمكِ على ما عليه. أنتِ جميلة كما أنتِ؛ ولستِ في حاجة للتمرين أو الضلوع في حِمية. فلا تبدين سمينة أو من هذا القبيل".

وهو ما كان كذبة مني. كنتُ فعلاً أحبّ نعومة جسمها، بلحمه القليل دون زيادة. كنتُ أحبّ تحريك ظهرها العاري.

فقالت، تهزّ رأسها "أنتَ لا تفهم بالضبط. تقول إني جميلة، أن أبدو على ما عليه الآن، لكنه يستنفد كلّ ما عندي من الطاقة لأبقى بالوضع نفسه".

قد يقول أيّ دخيل، إننا نعيش حياة مثالية. واقتنعتُ بهذا أحياناً. فأنا أتحمّس لعملي، وأجمع قدراً معقولاً من المال. أملك شقّة كوندو[1] بأربع غرف نوم في آوياما، وشاليهاً صغيراً بين جبال هاكون، سيارة BMW، سيارة جيب شيروكي. ولي عائلة سعيدة. أحبّ زوجتي وابنتيّ الاثنتين. وماذا يطلب امرؤ أكثر؟ لو افترضنا أن يوكيكو والطفلتين رجونني أن أدلّهن على ما يجب فعله ليكنّ أفضل معي، لأحبهنّ أكثر، فلن أجد ما أقوله. لا أتصوّر حياة أسعد.

لكن منذ انقطاع شيماموتو عن المجيء، انغرستُ على ظهر القمر عديم الهواء. لو راحت للأبد، فلن يتبقّى مَن أُفضي له بمكنون مشاعري. في الليالي المؤرّقة أرقد في الفراش، وأعيد في خيالي مرة تلو أخرى تمثيل ذلك المشهد في مطار كوماتسو الجليديّ. وقد استعدته مرات، حتى بدأت تشحب الذكريات. أو هكذا ظننتُ. فكلّما تذكّرتُ، ثارت فعالية الذكريات. كانت كلمة "متأخّرة" تومض على رقعة معلومات الطيران؛ خارج النافذة، يهطل الثلج في جَمَد. لا نرى أبعد من خمسين ياردة. على المقعد، شيماموتو جالسة، تلملم نفسها بإحكام. بمعطفها الصوفي السميك، وشالها. جسمها برائحته المخلوطة بالدموع والحزن. وأستطيع

(١) الكوندو: شقق تمليك مشترك. (م)

شمّ الرائحة. في الفراش، إلى جانبي، تتنفّس زوجتي في سكينة، وهي نائمة. لا تعرف. فأغمضتُ عينيّ، وهززتُ رأسي. لا تعرف.

أذكر موقف السيارات كملعب بولنج مهجور، ثلج ذائب في فمي، وأنا أسقيها إياه. شيماموتو بالطائرة، بين ذراعيّ. عيناها مغلقتان، آهتها من بين شفتيها المفروقتين طفيفاً. جسمها، الناعم الرخو. كانت تريدني إذن. فتحت لي قلبها. مع ذلك، ألغيتُ نفسي، وعدتُ إلى ظهر القمر، مغروساً في عالم بلا حياة. وحين تركتني، مؤخّراً، ضاعت حياتي من جديد.

أستيقظ أحياناً بالثانية أو الثالثة صباحاً، ولا يزور النوم جفنيّ ثانية. فأخرج من فراشي، أروح للمطبخ، أصبّ لنفسي ويسكي. والكأس في يدي، أتطلّع إلى المقبرة المعتمة هناك، وأنوار السيارات الكاشفة على الطريق. كانت لُحيظات الزمن الفاصلة بين الليل والفجر تبدو طويلة داكنة. لو استطعتُ البكاء، فقد تجري الأمور أيسر. لكن لأيّ شيء أبكي؟ ومن أبكي عليه؟ كنتُ مستقلّ الذات، فصعُب أن أبكي على امرئ آخر، وكنتُ عجوزاً فصعُب أن أبكي حتى على ذاتي.

*

هلّ الخريف أخيراً. وحين جاء، توصّلتُ إلى قرار. عليّ أن أضحّي: فلم أعد قادراً أن أواصل الحياة هكذا.

ذات صباح بعد أن وصّلتُ ابنتيّ لمدرسة الحضانة، ذهبتُ لحمّام السباحة وسبحتُ كعادتي ألفَي متر. أتصوّر نفسي سمكة. مجرد سمكة، لا تحتاج للتفكير، ولا حتى في السباحة. ثم تحمّمتُ، غيّرتُ ملابسي إلى شورت وقميص خفيف، وبدأتُ رفع الأثقال.

فيما بعد توجّهتُ إلى شقّة بغرفة واحدة كانت مكتبي، أراجع الحسابات، استحقاق أجور مستخدميّ، أفكّر في خطّة تغيير موديل روبين نست في فبراير القادم. وفي تمام الواحدة، كالمعهود، عدتُ للبيت أتناول الغداء مع زوجتي.

قالت يكيكو "عزيزي، اتّصل أبي صباحاً. مشغول كالعادة. قال، الأسهم ارتفعت للسقف، وعلينا بالشراء قدر المستطاع. قال، لا من أسهمكَ الجارية كالطاحونة، بل شيء خاصّ إضافيّ".

"لو كان [illegible] هكذا، فلماذا أخبرنا ولم يحفظها لنفسه. أتعجّب مما فعل".

"قال، هذه طريقته الشخصية في إسداء شكر إليكَ. قال، ستفهم ما يرمي إليه. أليس كذلك؟ ويدعونا لتلقّي نصيبه، كما ترى. قال، علينا أن نستثمر ما عندنا من فلوس ولا نقلق، فهي أسهم مرتفعة. وإن لم تُدرّ ربحاً لسبب ما، فهو متأكّد من أننا لن نخسر بنساً".

أرحتُ شوكتي في صحن المكرونة. "أيّ شيء آخر؟"

"آه، قال، علينا التحرّك بسرعة، فاتّصلتُ بالبنك، وبلّغتهم إغلاق حساب مدّخراتنا وإرسال الفلوس للسيد ناكاياما بشركة الاستثمار.

فاشترى الأسهم. أنا الوحيدة التي ستغُلّ ربحاً قرابة ثمانية ملايين ين. أكان عليّ شراء المزيد؟"

فتبلّعتُ ببعض الماء. وحاولتُ العثور على الكلمات المناسبة. "قبل فعل هذا كلّه، لمَ لم تسأليني؟"

سألت، مندهشة "أسألكَ؟ لكنكَ تشتري دائماً ما يُبلغكَ أبي بشرائه من أسهم. سألتني أن أفعل هذا أكثر من مرة، هه؟ تُخبرني أن أنطلق فحسب، أفعل ما أظنّه صحيحاً. وهو ما فعلتُ. قال أبي، لن نخسر. وكنتَ بحمّام السباحة، فلم أتمكّن من الاتّصال بكَ. إذن، فما المشكلة؟"

قلتُ "لا بأس. لكني أريدكِ أن تبيعي هذه الأسهم".

"أبيعها؟"، وأغمضت عينيها كمن أعشاه ضوء باهر.

"تبيعين الأسهم التي اشتريتِ، وتعيدي الفلوس في حساب مدّخراتنا".

"لكن، لو فعلتُ لدفعنا الكثير أجرَ تحويل".

قلتُ "لا يهمّ. بيعيها، وحسب. لا يعنيني، وإن انتهى الأمر إلى خسارة. بيعي فقط كلّ ما اشتريته اليوم".

تأوّهت كيكو. "ماذا حدث بينكَ وأبي؟ ماذا يجري؟"

فلم أردّ.

"ماذا حدث؟"

بدأتُ "اسمعي، كيكو. لقد أمرضني ذلك كلّه. لا أريد كسب مال في سوق الأسهم. أريد كسب مال من كدّ يديّ. وعملي يمضي بصورة ممتازة، حتى الآن. ولستِ في حاجة إلى مال، أليس كذلك؟"

"أعرف، أعمالكَ ممتازة، ولم أشتكِ يوماً. أنا ممتنّة لكَ، وتعرف أني أحترمكَ. لكن أبي يفعل هذا ليساعدنا. ألا تفهم؟"

"أفهم. يكيكو، هل تعرفين معنى الاتّجار بهذا؟ تعرفين مغزى أن يخبركِ أحدهم إن هناك فرصة مضمونة مائة بالمائة للفوز بالربح؟"

"لا".

قلتُ "فهو تلاعُب بالأسهم. يناور امرؤ داخل شركة بالأسهم، لإنجاز ربح مصطنع، ثم يقسّم مع زملائه العوائد. يشقّ هذا المال طريقه نحو جيوب السياسيين أو ينتهي إلى رشىً متضامنة. ليست هذه الأسهم التي حثّني والدكِ على شرائها من قبل. تلك الأسهم كانت لتجميع ربح. مجرّد معلومات طيبة، لا أكثر. كما أن الأسهم ترتفع معظم الوقت، لكن ليس كلّ مرة. هذه مختلفة. فيها رائحة عفن. ولا أريد أن أنال مكسباً من التعامل بها".

والشوكة في يدها، استغرقت يكيكو في أفكارها.

"أنّى لكَ اليقين أن هذه الحالة تلاعُب بالأسهم؟"

قلتُ "لو أردتِ أن تعرفي حقاً، فاسألي والدكِ. سأخبركِ: الأسهم المضمونة التي لا تنزل، تأتي فقط من تعامل مناف للقانون. عمل أبي سمسار بورصة، أربعين عاماً. كان يكدح من الصباح للمساء. وكلّ ما خلّفه مجرّد منزل صغير زريّ. ربما كان غبياً في عمله. لكن أمي، كلّ ليلة، كانت تجثم على حساب ما نملك، قلقة من مائة أو مائتي ين خشية أن تتذبذب. تلك هي العائلة التي نشأتُ بين ظهرانيها. قلتِ إنكِ قد تربحين ثمانية ملايين ين. يكيكو، إننا نتكلّم عن مال حقيقيّ، لا أموالاً محتكرة. يركب معظم الناس للعمل يومياً، يحشرون أنفسهم في قطارات معبّأة، يتحمّلون وقتاً إضافياً، يُرهقون، ثم لا يقتربون من جمع نصفه في سنة. عشتُ هذه الحياة ثماني سنوات، هكذا أعرف. وما من طريقة لجمع ثمانية ملايين ين في ليلة. لكنكِ قد لا تتصوّرين هذه الحياة".

يـكـيـكـو صامتة. تعضّ شفتها، وتحدّق مُجهَدة في صحنها. أدركتُ أني أرفع صوتي، فخفضتُه.

"تقولين في حبور، إن المال الذي نستثمره سيتضاعف خلال أسبوعين. ثم تستحيل ثمانية ملايين ين، ستة عشر مليوناً. هناك خطأ في هذا التفكير. أجد نفسي منغمساً فيه على هذا النحو، مما يجعلني أحسّ بخواء".

تطلّعت يـكـيـكـو إليّ عبر المائدة. أستأنف الطعام، فأحسّ شيئاً في داخلي يهتزّ. توتّر أم غضب؟ لم أحدّد. مهما كان، كنتُ عاجزاً أمامه.

قالت يـكـيـكـو في هدوء، بعد صمت طويل "آسفة. كان عليّ أن أُعمل رأيي".

"لا بأس. فأنا لا ألومكِ. ولا ألوم أحداً".

"سأتّصل بهم أُبلغهم أن يبيعوا كلّ حصّتنا. كي لا تغضب مني".

"لستُ غاضباً".

وواصلتُ طعامي، صامتاً.

سألت يـكـيـكـو، ناظرة نحوي "هل يوجد ما تودّ تبليغي به؟ لو كان، قُل لي. حتى وإن صعُب عليكَ. لو رأيتَ ما أستطيع فعله، فقط سَمِّه. فأنا شخص عاديّ، أعرف أني ساذجة في كلّ شيء؛ حتى إدارة الأعمال. لكني لا أتحمّل أن أراكَ تعيساً. لا أودّ رؤية نظرة موجوعة في وجهكَ. فماذا تبغُض من حياتنا؟ قل لي".

فهززتُ رأسي. "ليس عندي شكاوى. إني أحبّ وظيفتي، وأحبكِ. كلّ ما أقوله هو أني أحياناً لا أطيق طريقة والدكِ في توظيف الأشياء. لا تفهميني خطأ، فأنا أحبه. أعرف أنه يحاول معونتنا، وأقدّر ذلك. لستُ

غاضباً. أنا، لم أعد أفهم من أنا. لا أميّز الصواب من الخطأ. مجتار. لكني لستُ غاضباً".

"تبدو غاضباً، قطعاً".

ندّت عني آهة.

قالت "وتتأوّه طول الوقت. عموماً، هناك ما يزعجك. فبالكَ شارد، على بُعد أميال".

"لا أعرف".

ظلّت عينا يوكو عليّ. "هناك شيء في بالكَ. لكن لا أعرف ما هو. أتمنّى لو أرى ما أستطيع فعله".

صُدمتُ برغبة عنيفة للاعتراف بكلّ شيء. كم سيُريحني! لا مزيد من الخفاء، لا مزيد من الحاجة لاحتراف تمثيل أو كذب. يوكو، انظري، أحبّ امرأة أخرى، ولا يمكن أن أسلوها. كبحتُ نفسي، حاولتُ أن أحتفظ بعالمي حتى لا يتقوّض، لكني لم أعد أستطيع كبح نفسي أكثر. حين تظهر المرة القادمة، لن أهتمّ بما قد يحدث: سأُمارس معها الحبّ. إني أفكّر فيها وأنا أستمني. أفكّر فيها وأنا أمارس معكِ الحبّ، يوكو... لكني لم أقل شيئاً. فالاعتراف لن يخدم غرضه. سيجعلنا مجرّد بائسَين.

*

بعد الغداء، عدتُ إلى مكتبي لأواصل العمل. لكن عقلي كان على بُعد مليون ميل. شعرتُ بالبؤس، من موعظتي المضجرة إلى يوكو و هكذا. ما قلته صحيح كلّه. لكن مَن قاله كلّه خطأ. كذبتُ على يوكو، ألعب بذيلي من ورائها. أنا آخر شخصٍ قد يتسنّم أرض الأخلاق العالية. تحاول يوكو جاهدة أن تفكّر في هذا واضح، يتّسق مع نوعية

شخصيتها. لكن، ماذا عن حياتي أنا؟ هل هناك أيّ ثبات، أدنى قناعة للتحدّث عنها؟ أحسستُ أني خواء، تنقصني كلياً عزيمة الحركة.

رفعتُ رجليّ على مكتبي، وبقلم رصاص في يدي، حدّقتُ متوانياً من النافذة. من مكتبي تُرى حديقة. كان الجوّ لطيفاً، وهناك آباء مع أطفالهم. هناك أطفال يلعبون في حفرة الرمل أو يتزلّجون على زلّاجات، بينما تنصبُ الأمهات عيونهن عليهم وهن يدردشن مع أمهات أخريات. رؤيتهم تذكّرني بابنتيّ. أردتُ أن أراهما، أسير معهما في الشارع، وأحضنهما بين ذراعيّ مرة أخرى. أردتُ أن أحسّ بالدفء من كلّ جسديهما. لكن أفكاري عنهما قادتني بعناد لا يرحم إلى ذكريات شيماموتو. ذكريات مشرقة عن شفتيها المفروقتين طفيفاً. أفكاري عن ابنتيّ احتشدت بصورة شيماموتو. ولم أستطع التفكير في شيء عداه.

فغادرتُ مكتبي، سرتُ بالشارع العام في آوياما. رحتُ للمقهى الذي اعتدتُ لقاء شيماموتو فيه، وتناولتُ قهوة. قرأتُ كتاباً، وحين زهقتُ من القراءة، فكّرتُ فيها من جديد. استدعيتُ نُثارات حواراتنا، كيف تُخرج سيجارة سالم من حقيبة يدها ثم تُشعلها، كيف تدفع برفق للوراء أحياناً خُصلة شعر، كيف تحني رأسها طفيفاً وهي تبتسم. حين مللتُ الجلوس وحدي، شرعتُ في الرحيل إلى شبيا. أحبّ السير عبر شوارع المدينة، أُحدّق في البنايات والمحال، أراقب الناس. أحبّ إحساس الحركة في المدينة على قدميّ. مع ذلك، كانت المدينة كئيبة، فارغة. فالبنايات متداعية، الشجر فاقد لونه، وكلّ عابر خلو المشاعر، والأحلام.

دخلتُ السينما، بحثاً عن فيلم غير مألوف، وظللتُ أشاهد الشاشة بانتباه. حين انتهى العرض، خرجتُ إلى ليل شوارع المدينة، دخلتُ مطعماً مررتُ به، فتناولتُ وجبة بسيطة. كانت شبيا تزدحم بموظفي الشركات

في طريقهم للعودة. مثل فيلم مُسرّع، تدلف القطارات إلى المحطة، فتبلع حشداً إثر آخر. حولي، هنا، تذكّرتُ فجأة، أني لمحتُ شيماموتو، من عشر سنوات، بنظارتها الشمسية، بمعطفها الأحمر السابغ. راح ذلك من مليون عام.

أسترجع كلّ شيء. زحام آخر السنة، طريقة مشيتها، كلّ ركن ندور إليه، السحب الغائمة، كيس التسوّق الذي تحمله، فنجان القهوة وَلم تمسسه، ترانيم رأس السنة. فاكتسحتني مرة أخرى غُصّة ندم لأني لم أناد عليها. لم يكن ما يربطني عندئذ، ولا ما أخسره. كنتُ سأحضنها لصقي، ونسير معاً. لا يهمّ أيّ موقف قد يربكنا، كنا سنكتشف طريقة. لكني فقدتُ الفرصة الآن، للأبد. أمسك بمرفقي رجل غامض في منتصف العمر، فانسلّت شيماموتو في الأُجرة، واختفت.

أخذتُ قطار المساء المزدحم عائداً. استحال الجوّ أسوأ وأنا أرى الفيلم، والسماء قد تلبّدت بسحاب كثيف يبدو مبتلاً. قد تمطر في أيّ لحظة. لا مظلّة معي، وألبس سترة كتّان، جينز أزرق، وحذاء رياضياً مذ شرعتُ في الصباح للذهاب إلى حمّام السباحة. يُفترَض أن أعود للبس بدلتي المعتادة. ولم أحسّ بالرغبة. لا يهمّ، هكذا قرّرتُ. سأخرج دون ربطة عنق، مرة - لن تحدُث مصيبة.

في السابعة، أمطرت. مطر خفيف، رذاذ خريف يبدو أنه سيدوم. وكما أفعل دائماً، وقفتُ جنب الحانة الأولى التي أغيّر موديلها لمراجعة سير العمل. كان المكان قد انتهى إلى أجمل مما تخيّلتُ. صار مكاناً مريحاً أكثر. إنارته مغوية أكثر، وتُعزّز الموسيقى هذا المزاج. صمّمتُ مطبخاً منفصلاً صغيراً، استأجرتُ طباخاً محترفاً، وعملتُ قائمة طعام جديدة من أصناف بسيطة لكن أنيقة. أصناف لا تحتاج المزيد من

المقوّمات أو المزخرفات، لكن لا يضلُع فيها مجرّد هاوٍ. أصناف مرتقبة، على أيّ حال، مقبّلات تصحَب المشروبات، فيجب أن تكون سائغة الطعم. وسنقوم كلّ شهر بتغيير قائمة الطعام كلياً. لم تكن سهلة مَهمّة العثور على الطبّاخ الذي أتخيّله. وقد عيّنتُ أحدهم، أخيراً، على رغم أنه يكلّفني أكثر بكثير مما قيّضتُ له. لكنه يكسب أجره وأنا راضٍ. ويبدو أن روّادي سُرّوا منه أيضاً.

حوالي التاسعة، استعرتُ مظلّة من الحانة، متجّهاً إلى روبين نست. وفي التاسعة والنصف، ظهرت شيماموتو. غريب، تظهر دائماً في الأمسيات المطيرة الهادئة.

-١٤-

تلبس فستاناً أبيض، وسترة زرقاء بحرية ضافية. تُزيّن ياقته قلادة فضيّة صغيرة بشكل سمكة. فستان بسيط التصميم، دون أدنى زُخرف من أيّ نوع، مع أنكَ تُقسم، وأنتَ تراه عليها، إنه أغلى فستان بالعالم. كانت أكثر سمرة من آخر مرة رأيتها.

قلتُ "فكّرتُ أنكِ لن تأتي هنا أبداً".

قالت، وهي تضحك "كلّما أراكَ، تقول الشيء ذاته". وكالعادة، جلست جنبي، تُريح يديها على البار. "لكني كتبتُ لكَ، قد لا يُقدّر لي المجيء هنا فترة، محتمل. هه؟"

قلتُ "لكلمة (فترة) طول لا يمكن قياسه. على الأقلّ لمن ينتظر".

قالت "لكن هناك أوقات تكون فيها كلمة ضرورية. في بضعة مواقف، تكون الكلمة الوحيدة المحتملة التي نستطيع استخدامها".

"كما كان لكلمة (محتمل) ثُقل لا يوزَن".

قالت "أنتَ على حقّ"، وأشرق وجهها بابتسامته المعتادة، فهبّ نسيم عليل من مكان بعيد. "أعتذر. لا أحاول تبرير نفسي، لكن ليس بيدي ما كان. كانتا الكلمتين اللتين استطعت استخدامهما".

"لا حاجة للاعتذار. كما أخبرتكِ، هذه حانة وأنتِ زبون. تأتين حيث تريدين. وقد اعتدتُ هذا. أنا فقط أتفوّه به لنفسي. فلا تحملي همّاً".

نادَت الساقي، تطلب المزيج. نظرت إليّ عن قرب، كمن يتفحّصني "أنتَ تلبس زياً شبابياً للغاية".

قلتُ "رحتُ للسباحة هذا الصباح، ولم أغيّر ملابسي. لم يكن عندي وقت. كما أني أحبّه. أحسّ أني أنا الحقيقيّ فيه".

"تبدو أصغر. ليس لأحد أن يخمّن إنكَ بالسابعة والثلاثين".

"كما لا تبدين بالسابعة والثلاثين".

"لكن لا أبدو بالثانية عشرة".

قلتُ "صحيح".

وصل مزيجها، فاحتست رشفة. أغمضت عينيها، برقّة، كمن يستمع إلى صوت بعيد. وعيناها مغمضتان، تبيّنتُ مرة أخرى الخطّ الصغير أعلى جفنيها مباشرة.

قالت "هاجيمي، فكّرتُ في أمزجة حانتك. ورغبتُ في تناول إحداها. لا يهمّ أين رحتُ، فلم أجد مشروبات كالتي هنا".

"ذهبتِ إلى بعيد؟"

فسألَت "لماذا تقول هذا؟"

رددتُ "شيء فيكِ. مزاج معين. كأنكِ رحتِ من زمن بعيد".

رفعت بصرها إليّ. أومأت. بدأت "هاجيمي، لوقت طويل أنا..."، ثم سكتت فجأة، كمن يتذكّر. ربما تفتّش داخلها عن كلمات سديدة. أيّها كان ضائعاً. تعضّ شفتها، ثم تبتسم من جديد. "على أيّ حال، آسفة. كان يجب أن أتّصل. لكني أردتُ أن أترك أشياء معينة كما هي. مصونة، للكلام. إما أن آتي هنا، أو لا. حين آتي هنا، آتي. وحين لا... فأنا في مكان آخر".

"لا يوجد حلّ وسط؟"

قالت "لا يوجد معي حلّ وسط. ولماذا؟ لأن متعلّقات الحلّ الوسط هناك".

قلتُ "في مكان لا توجد فيه متعلّقات الحلّ الوسط، لا يوجد حلّ وسط".

"بالضبط".

"في مكان لا توجد فيه كلاب، لا توجد أوجار كلاب، بمعنىً آخر".

قالت شيماموتو "نعم؛ لا كلاب، لا أوجار كلاب". وهي تنظر إليّ بطريقة مرحة. "لديكَ حسٌ غريب بالفكاهة، هل تعرف؟"

كما يحدث غالباً، بدأ ثلاثيّ البيانو عزف "عشّاق منحوسون". لفترة، ظللنا جالسَين هناك، نسمع في خشوع.

"هل لي أن أسألكَ شيئاً؟"

قلتُ "على الرحب".

سألتْ "ماذا بينكَ وهذا القصيد؟ كلّما تأتي هنا، على ما يبدو، يعزفون هذه الوصلة. قاعدة مألوفة؟"

"لا. يعرفون أني أحبها".

"قصيد بديع".

أومأتُ. قلتُ "استغرق مني طويلاً أن أتفهّم قدر تعقيدها، كم فيها من أشياء أكثر من مجرد لحن جميل. وتحتاج إلى نوع خاص من الموسيقيين لعزفها. الدوق النجتون وبيلي ستريون كتباها من زمن طويل. سنة سبعة وخمسين، كما أعتقد".

"متى سمّياها "منحوسون"، وماذا يقصدان؟"

"تعرفين؛ يولد العشاق تحت نجم منحوس. العشاق تعيسو الحظّ. وهما يشيران هنا إلى روميو وجوليت. كتبها النجتون وستريون للعزف في مهرجان انتاريو لأعمال شكسبير. في الاسطوانة الأصلية، يعزف جوني هودج دور جوليت على سكسفون أعلى، بينما يعزف بول سالفي دور روميو على سكسفون صادح".

قالت "يولد العشاق تحت نجم منحوس. شيء كهذا، كُتب لنا".

"تقصدين إننا عشاق؟"

"وهل تظنّ غيره؟"

فنظرتُ إليها. لم تعد تبتسم. تبيّنتُ لمعة واهنة في عمق عينيها.

قلتُ "شيماموتو، لا أعرف شيئاً عنكِ. أحسّ بذلك كلّما أنظر في عينيكِ. وأقصى ما أستطيع قوله عنكِ، حين كنتِ بعمر الثانية عشر، شيماموتو التي كانت تعيش في حيّ مجاور، ومعي في الصفّ. لكنه مرّ منذ خمسة وعشرين عاماً. كانت رقصة التويست، والناس يركبون الترام. لا شرائط تسجيل، لا صمّامات، لا قطارات رصاصة، لا طعام حِمية. إنني أتكلّم عن زمن مرّ من زمان. وغير ما أعرفه عنكِ منذئذٍ، فأنا في ظلام".

"هل تراه في عينيّ، أنكَ لا تعرف شيئاً عني؟"

رددتُ "لا شيء مكتوب بعينيكِ. إنه مكتوب بعينيّ. أرى صورته في عينيكِ".

قالت "هاجيمي. أعرف أنه ينبغي أن أحكي المزيد. يجب. لكن ليس هناك ما أتكلّم عنه. أرجوكَ، لا تقل أكثر".

"كما قلتُ، أتكلّم عن نفسي. فلا تمنحيه فكراً زيادة".

رفعت يداً نحو ياقتها، ومسّت قلادة السمكة. تنصتُ بهدوء إلى ثلاثيّ البيانو. حين انتهى عزفهم، صفّقت وأخذت رشفة من مزيجها. في النهاية أطلقت آهة طويلة ثم دارت إليّ. قالت "ستة أشهر، زمن طويل. لكن كان بمقدوري أن أجيء هنا فترة، محتمل".

قلتُ "الكلام السحريّ القديم".

"كلام سحريّ؟"

"فترة - محتمل".

فابتسمت، تنظر إليّ. أخرجت سيجارة من حقيبتها، أشعلتها بولاّعة.

قلتُ "حين أنظر إليكِ، أحياناً، أحسّ أني أُحدّق في نجم بعيد. مذهل، لكن نوره من عشرات آلاف السنين. ربما لم يعد النجم موجوداً. مع أن نوره يبدو حقيقياً بالنسبة لي أكثر من أيّ شيء".

لم تقل شيماموتو كلمة.

واصلتُ "أنتِ هنا. على الأقلّ تبدين كأنكِ هنا. وقد لا تكونين. ربما ظلّكِ فحسب. وأنتِ الحقيقية في مكان آخر. أو اختفيتِ فعلاً، من زمن طويل، طويل. أُمدّد يديّ لأراكِ، لكنكِ تُخفين نفسكِ خلف حجاب من سحب المحتمل. تظنين أنه بمقدورنا أن نستمرّ هكذا للأبد؟"

ردّت "محتمل. طالما هناك زمن".

قلتُ "أرى أني لستُ الوحيد الذي يملك حساً غريباً بالفكاهة". وابتسمتُ.

فابتسمَت أيضاً. توقّف المطر، دون صوت يدلّ على أن هناك فسحة بين السحب، وأن بواكير نور الشمس ستُضوّي فيما بينها؛ مثل هذه الابتسامة. خطوط دافئة ليّنة بزاويتي عينيها، تحمل وعداً بشيء رائع.

قالت "هاجيمي. جلبتُ لكَ هدية".

وناولتني علبة ملفوفة بشكل بديع مع عقدة حمراء.

قلتُ، أقدّر حجمها وشكلها "تبدو اسطوانة".

"اسطوانة نات كنج كول. التي اعتدنا سماعها. تذكر؟ أُهديها إليكَ".

"شكراً. لكن ألستِ في حاجة إليها. كإرث محفوظ من والدكِ؟"

"عندي المزيد. وهذه لكَ".

حدّقتُ في الاسطوانة، ملفوفة ومزيّنة بشرائط. قبل وقت، كانت الأصوات حولي؛ صخب الناس في الحانة، موسيقى ثلاثيّ البيانو، ثم

راحت تضمحلّ، كأنها راحت مع المدّ. هي وأنا، فقط، بقينا. وما عدانا وهم، ديكور ورقيّ ملوّن بخشبة مسرح. ما يبقى، الحقيقيّ، نحن الاثنين.

قلتُ "شيماموتو، لمَ لا نذهب لمكان نسمعها فيه، معاً؟"

قالت "رائع".

"لديّ شاليه صغير في هاكون. فارغ حالياً، به ستريو. في هذا الليل قد نسوق إليه، فنصل خلال ساعة ونصف".

نظرت إلى ساعتها. من ثم إليّ. "تريد الذهاب هناك الآن؟"

قلتُ "أجل".

فضيّقت عينيها. "لكن الوقت بعد العاشرة. ولو ذهبنا إلى هاكون، فسنتأخّر بالعودة. ألا تبالي؟"

"لا. وأنتِ؟"

فنظرت مرة أخرى إلى ساعتها. أغمضت عينيها عشر ثوانٍ. لكن حين فتحتهما، أُفعم وجهها بتعبير جديد، كأنها شردَت بعيداً، خلّت شيئاً هناك، ثم عادت. قالت "لنذهب، لا بأس".

*

اتّصلتُ بمديري المساعد، أطلب منه مراعاة كلّ شيء في غيابي؛ عليكَ أن تغلق درج النقود، تنظّم الفواتير، وتودع الأرباح في رصيد حسابي بعد الليلة الماضية. سرتُ إلى شقّتي، وسقتُ سيارتي من موقف تحت الأرض. اتّصلتُ بزوجتي من هاتف عام قريب، أخبرتُها إني مسافر إلى هاكون.

قالت، مندهشة "في هذه الساعة؟ لماذا تمضي هذه المسافة إلى هاكون الآن؟"

قلتُ "هناك ما أحتاج التفكير فيه".

"فلن تعود الليلة؟"

"ربما لا".

"عزيزي، فكّرتُ فيما حدث، وأنا آسفة. أنتَ على حقّ. تخلّصتُ من الأسهم كلّها. فلماذا لا ترجع؟"

"يكيكو، لستُ غاضباً منكِ مطلقاً. فانسَي. أريد وقتاً للتفكير. فأمهليني ليلة واحدة، هه؟"

لم تقل شيئاً لوهلة. ثم بدر منها "لا بأس" مجهدة. "اذهب إلى هاكون. احذر القيادة. فالدنيا تمطر".

"سأفعل".

قالت زوجتي "هناك كثير لا أفهمه. فقل لي شيئاً واحداً: أنا عقبة أمامكَ؟"

جاوبتُ "على الإطلاق. لا شيء يضايقني منكِ. لو هناك أيّ شيء، فالمشكلة معي. لا تقلقي، هه؟ أريد بعض الوقت للتفكير".

أغلقتُ السمّاعة، وسُقت إلى الحانة. أستطيع القول من صوت يكيكو إنها تتملّى في حوارنا على الغداء. متعبة، محتارة. وهو ما أحزنني. المطر يهطل غزيراً. دعوتُ شيماموتو لدخول السيارة.

سألتُ "تريدين الاتّصال بمكان قبل أن نذهب؟"

هزّت رأسها صامتة. وكما فعلَت حين عودتنا من مطار هانيدا، ضغطت بوجهها على الزجاج، وهي تُحدّق خارجه.

هناك زحام قليل في الطريق إلى هاكون. فدرتُ متّجهاً نحو طريق تومي الدولي، في آتسوجي، ثم إلى السريع في أودوارا. حافظتُ على سرعتنا بين ثمانين وتسعين ميلاً، في الساعة. كان المطر يهطل صفائح بين فينة وأخرى، لكني أعرف كلّ تلّة ومنحنىً على الطريق. ومجرّد

استلمتُ الطريق السريع، لم نتكلّم أنا وشيماموتو إلا نادراً. شغّلتُ رباعية موتسارت[1] على الهادئ، وعيناي ترقبان الطريق. شيماموتو ضائعة الفكر، تنظر خارج النافذة. وبين حين وآخر، تُحدّق بيّ. حين تفعل، يجفّ حلقي. وبلعتُ ريقي مرتين، لأجبر نفسي على الراحة.

قالت، ونحن نقترب من كوزو "هاجيمي. لا تسمع الجاز خارج الحانة؟"

"لا، لا أسمع. موسيقى كلاسيّة غالباً".

"لماذا؟"

"أظنّ الجاز جزء من وظيفتي. وخارج الحانة، أحبّ سماع شيء مختلف. موسيقى الروك أحياناً، لكن نادراً ما أسمع الجاز".

"ما نوعية الموسيقى التي تسمعها زوجتكَ؟"

"أياً ما أسمعه في العادة. لا تكاد تُشغّل اسطوانات من عندها. ولستُ على يقين ما إن كانت تعرف كيف تُدير قرص المسجّل".

مدّت شيماموتو يدها إلى علبة الكاسيت، شدّت شريطين. كان أحدهما يضمّ أغاني الأطفال التي أغنّيها مع ابنتيّ في السيارة. "شرطيّ الكلاب" و"خُزامى". من تعبير وجهها، وهي تُحدّق في الكاسيت وصورة سنوبّي الكلب المتطفّل على غلافه، ترى كأنها اكتشفت شيئاً من الفضاء الخارجيّ.

دارت، من جديد، تُحدّق بيّ. قالت، بعد وهلة "هاجيمي. حين أراكَ وأنتَ تسوق، أودّ أحياناً أن أمسك المقود فأحرفه. قد نُقتل، فما رأيكَ؟"

"سنموت، طبعاً. إننا نمضي بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة".

(١) فولفجانج موتسارت: (١٧٥٦ ـ ١٧٩١)، موسيقار نمساويّ، من أعظم مؤلّفي الكلاسيات. (م)

"ألا تفضّل الموت معي؟"

"أفكّر في وسائل أكثر متعة للرحيل". وضحكتُ. "ثم إننا لم نسمع الاسطوانة بعد. وهو سبب وجودنا هنا، أليس كذلك؟"

قالت "لا تقلق. فلن أفعلها. تخطر الفكرة على بالي، بين وقت وآخر".

*

الوقت بداية أكتوبر، لكن ليالي هاكون باردة. وصلنا الشاليه، فتحتُ الأنوار، من ثم أشعلتُ مدفأة الغاز بغرفة المعيشة. أخرجتُ زجاجة براندي، وكأسين من الرفّ. جلسنا جنباً لجنب على الكنبة، كما اعتدنا منذ سنين عدداً، ووضعتُ اسطوانة نات كنج كول بقرص المسجّل. كانت لمعة المدفأة الحمراء تضوّي بكأسَي البراندي. جلست شيماموتو برجليها مضمومتين من تحتها. وأراحت ذراعاً على ظهر الكنبة، بينما الآخر في حجرها. كما في تلك الأيام الخوالي. ودّت إخفاء رِجلها، فقد ظلّت العادة كما هي. يغنّي نات كنج كول "جنوب الحدود". كم مرّ من سنين منذ سمعتُ هذا اللحن؟"

قلتُ "حين سمعتُ الاسطوانة، وأنا صغير، تساءلتُ عما يقع وراء الحدود".

قالت "وأنا أيضاً. حين كبرتُ، وتمكّنتُ من قراءة القصيد بالإنجليزية، خاب أملي. فقد كان أغنية عن المكسيك. وكنتُ أظنّه شيئاً مهيباً وراء الحدود".

"ماذا، على المثال؟"

دفعت شيماموتو شعرها للوراء، تجمعه بخفّة خلف رأسها. "لا أعلم. شيء جميل، كبير وناعم".

ردّدتُ "شيء جميل، كبير وناعم. فهل يُؤكل؟"

ضحكت. فبانت أسنانها البيضاء شاحبة. "أشكّ".

"شيء يمكن لمسه؟"

"محتمل".

"المحتملات، ثانية".

قالت "العالم مليء بمحتملات".

مددتُ يدي فوضعتها على أصابعها بظهر الكنبة. لم ألمس جسمها من زمن طويل، لا، منذ رحلة الطيران عائدَين من يشيكاوا. راحت أصابعي تمسّ أصابعها رفيقاً، فرفعت بصرها نحوي باقتضاب، ثم خفضته ثانية.

قالت "جنوب الحدود، غرب الشمس".

"غرب الشمس؟"

"سمعتَ بمرض هستيريا سيبريا؟"

"لا".

"قرأتُ هذا في مكان من وقت طويل. في المتوسّطة، ربما. لم أستطع طيلة حياتي أن أتذكّر بأيّ كتاب قرأته. عموماً، فهو يؤثّر على الفلاّحين قاطني سيبريا. حاول تصوّر هذا. أنكَ فلاّح، تعيش وحدكَ في سهوب سيبريا. تحرُث، يوماً بعد يوم، أرضكَ. وعلى امتداد البصر، لا ترى شيئاً. شمالاً، أفق، شرقاً، أفق، جنوباً، غرباً، كلّه هو هو. كلّ صباح، تنهض الشمس شرقاً، فتخرج للعمل بأرضكَ. حين تصبح فوق رأسكَ، تأخذ راحة للغداء. ووقت أن تغطس غرباً، تعود أدراجكَ لتنام".

"لا يشبه بالضبط نمط حياة صاحب حانة في آوياما".

"تقريباً". وابتسمت، تحني رأسها طفيفاً. "عموماً، تستمرّ الدورة، عاماً بعد عام".

"لكن، في سيبيريا، لا يعملون بأرضهم شتاءً".

قالت "يرتاحون شتاءً. في الشتاء يلزمون البيت، ينجزون أعمالهم المنزلية. وحين يهلّ الربيع، يخرجون للأرض ثانية. تصوّر، أنكَ ذلك الفلاّح".

قلتُ "طيب".

"وذات يوم يموت شيء داخلكَ".

"ما قصدكِ؟"

هزّت رأسها. "لا أعرف. شيء. فأنتَ، يوماً بعد يوم، ترقب الشمس تصعد شرقاً، تمرّ عبر السماء، ثم تغطس غرباً، وينشقّ شيء داخلكَ، فتموت. تُنحّي محراثكَ، ورأسكَ خلو من الفكر كلياً، تبدأ السير غرباً. تتّجه نحو أرض غرب الشمس. مثل مجنون، تواصل السير، يوماً بعد يوم، دون طعام أو شراب، إلى أن تنهار فوق الأرض، وتموت. هذا هو، هستيريا سيبريا".

حاولتُ استحضار صورة فلاّح سيبيريّ، راقد ميتاً على الأرض.

سألتُ "وماذا هناك، غرب الشمس؟"

فهزّت رأسها، من جديد. "لا أعرف. لا شيء. وربما شيء. عموماً، شيء مختلف عن جنوب الحدود".

بدأ نات كنج كول يغنّي "تظاهر"، وكما تفعل من زمن طويل، انطلقت شيماموتو للغناء معه، في صوت واهن:

تظاهر بأنكَ سعيد وأنتَ حزين

فليس الأمر صعباً

قلتُ "شيماموتو. بعد رحيلكِ، فكّرتُ فيكِ طويلاً. كلّ يوم، طيلة ستة أشهر، من الصبح للمساء. حاولتُ أن أتوقّف، فلم أستطع. وتوصّلتُ إلى نتيجة. لا أستطيع أن أفعلها من دونكِ. فلا أودّ أن أخسركِ ثانية. لا أودّ

سماع كلمتَي: فترة، أو محتمل. ستقولين، لن نرى بعضنا الآخر فترة، وتختفين. ولا يعلم أحد متى ترجعين. وقد لا ترجعين، وقد أقضي باقي حياتي لا أراكِ ثانية. ولا أتحمّل. فهي حياة دون معنىً".

نظرت إليّ شيماموتو دون أن تنبس، لا تزال تبتسم. ابتسامة هادئة لا يمكن لشيء أن يمسّها، لا تكشف ما يقع وراءها. قبالة هذه الابتسامة، شعرتُ كأني على وشك خسران انفعالاتي. في لحظة فقدتُ احتمالي، حسّي بمن أكون وأين أنا. وبعد فترة، مع ذلك، عادت الكلمات.

أخبرتها "أحبكِ. ولن يُبدّلني شيء. مشاعر كهذه ليس لها أن تزول. فقدتكِ مرات. لكن لن أدعكِ تذهبين هذه المرة. علّمتني هذه الأشهر القليلة الماضية. أنا أحبكِ ولا أريدكِ أن تتركيني، أبداً".

حين انتهيتُ، أغمضت عينيها. كانت نار المدفأة تضطرم، وظلّ نات كنج كول يغنّي أغانيه القديمة. يجب أن أقول شيئاً أكثر، فكّرتُ، فلم يُثمر عن شيء.

بدأت "هاجيمي. هذا مهمّ جداً، فاسمعني بانتباه. كما أخبرتكَ، لا يوجد حلّ وسط، معي. خُذني كلّي أو لا. هي الطريقة المجدية. إن كان لا يعنيكَ دوام هذه الحال، كما نحن، فلا أرى سبباً في ألاّ نفعلها. لا أعرف كم سنستطيع، لكني سأفعل ما في وسعي لأراه يحدث. فحين أقدر على المجيء لأراكَ، سآتي. لكن حين لا أقدر، فلن آتي. لا أستطيع المجيء حين أحسّ بأني أحبّ. قد لا يرضيكَ هذا الاتفاق، لكن إن لم تردني أن أذهب ثانية، فعليك أن تأخذني كلّي. كلّ شيء. كلّ ما في من متاع، كلّ ما يتعلّق بي. وسآخذكَ كلّكَ. هل تفهم؟ تفهم ما أعنيه؟"

قلتُ "أجل".

"ولا تزال تريدني معكَ؟"

قلتُ "قرّرتُ مسبقاً، شيماموتو. فكّرتُ فيه حين رحتِ، وأعملتُ رأيي".

"لكن، هاجيمي، لديكَ زوجة وطفلتان. وأنت تحبهنّ. تودّ أن تُسدي لهن الصحيح".

"طبعاً، أحبهن. كثيراً. وأريد أن أقوم على رعايتهن. لكن هناك شيء مفتقد. عندي عائلة، وظيفة، ولا شكوى من أيهما. تستطيعين القول إني سعيد. مع علمي بأنه منذ صادفتكِ ثانية، هناك شيء مفتقد. السؤال الأكبر، ما هذا المفتقد. شيء ناقص. فيّ، وفي حياتي. جزء مني جوعان دائماً، عطشان أبداً. لا زوجتي، ولا طفلتاي، تستطيع ملء الفجوة. في العالم كلّه، شخص واحد يستطيع. الآن فقط، حين يرتوي هذا العطش، أدرك كم أنّي خلاء. وأني جوعان، وعطشان، من سنين. لن أستطيع العودة إلى ذلك العالم".

لفّت شيماموتو حولي ذراعيها، تُريح رأسها على كتفي. أحسّ نعومة جسمها. فقد اندفع عليّ، دافئاً وملحّاً.

"وأنا أحبكَ أيضاً، هاجيمي. أنتَ الوحيد الذي أحببته يوماً. لا أعتقد أنكَ تعرف كم أحبكَ. أحببتكَ مذ كنتُ بالثانية عشرة. حين يحضنني أحد، أفكّر فيكَ. وهو السبب أني لم أكن أريد رؤياكَ ثانية. فلو رأيتكَ مرة، أعلم أنه لن يعود بمقدوري تحمّل المزيد. لكن لم أستطع إبعاد نفسي. فكّرتُ، بدايةً، يجب أن أتأكّد أنه أنتَ، فعلاً، ثم أروح للبيت. لكن مجرد أن رأيتكَ، تكلّمتُ معكَ". وظلّت تضع رأسها على كتفي. "مذ كنتُ بالثانية عشرة، أريدكَ أن تحضنني. ولم أجعلكَ تعرف، أليس كذلك؟"

اعترفتُ "لا، لم أعرف".

"منذ كنتُ بالثانية عشرة، أريد أن أحضنكَ، عارياً. ولم أجعلكَ تعرف، أظنّ".

فحضنتُها لصقي، أقبّلها. أغلقَت عينيها، دون نأمة. يتلوّى لسانانا حول بعضهما الآخر، فأحسّ بدقّات قلبها من تحت ثدييها. دقّات قلب دافئة، حنون. أغمضتُ عينيّ، أفكّر في مسار الدم الأحمر عبر شرايينها. لاطفتُ شعرها الناعم، أتشرّب شذاه. فهامست يداها على ظهري. انتهت الاسطوانة، وعاد الذراع إلى قاعدته. مرة أخرى كنا مُطوّقين، على صوت المطر. بعد وهلة، فتحَت عينيها. همسَت "هاجيمي، أنتَ متأكّد أنه أمر سديد؟ متأكّد أنكَ تريد تنحية كلّ شيء وراءكَ من أجلي؟"

أومأتُ. "نعم. أعملتُ رأيي، من قبل".

"لو لم ترني، لعشتَ حياة مسالمة. دون شكّ، أو استياء. ألا تظنّ؟"

قلتُ "ربما. لكني قابلتكِ. ولا يمكن التغاضي. وكما بلّغتِني مرة، فهناك أشياء معينة لا تستطيعين فعلها. بمقدوركِ أن تتقدّمي للأمام. شيماموتو، لا يعنيني أين ننتهي؛ أعرف فقط أني أريد الذهاب معكِ. لنبدأ من جديد".

قالت "هاجيمي. ألا تخلع ملابسكَ، فتدعني أرى جسمَكَ؟"

"تريدينني أن أخلع ملابسي؟"

"نعم. أولاً. اخلع ملابسكَ كلّها. أريد أن أتملّى في جسمكَ. ألا تريد؟"

فقلتُ "لا مانع. لو أردتِ". وتجرّدتُ أمام المدفأة. خلعتُ سترتي البحرية، قميصي البولو، الجينز الأزرق، الفانلة، واللباس. جعلتني شيماموتو أترجّل على رُكبتيّ إلى الأرض. كان قد تصلّب فعلاً، مما أحرجني قليلاً. تقهقرتُ طفيفاً لاستيعاب المشهد. وكانت لا تزال تلبس سترتها.

فضحكتُ "غريب أن أبدو العاري الوحيد".

قالت "جميل، يا هاجيمي". اقتربت مني، وبرقّة مهّدت عضوي في يدها وهي تقبّلني على شفتيّ. وضعَت يديها على صدري، ولأطول مدّة ممكنة لعقت حَلمَتيّ، وهي تُمسّد شَعر عانتي. وضعت أذنها فوق سُرّتي، وتناولت بيضتيّ في فمها. قبّلتني عبر جسمي كلّه. حتى باطن قدميّ. كأنها تزن الوقت. وقت الملاطفة، التدليك، اللعق.

سألتُ "ألن تتجرّدي أنتِ؟"

فردّت "فيما بعد. أريد أن أتمتّع بالنظر إلى جسمكَ أولاً، لمسه ولعقه كثيراً قدر استطاعتي. لو تعرّيتُ الآن، فسترغب في لمسي، أليس كذلك؟ حتى لو أخبرتكَ ألاّ تفعل، فلن تستطيع كبح نفسكَ".

"أنتِ على حقّ".

"لا أريد أن أفعلها بهذه الوتيرة. لقد استغرق منا وقتاً طويلاً للوصول هنا، وأريد تولّي الأمر في لطف وبطء. أريد أن أتملّى فيكَ، ألمسكَ بيديّ هاتين، ثم ألعقكَ بلساني. سوف أجرّب كلّ شيء؛ في رويّة. إن لم أفعل، فلن أتمكّن من المضيّ إلى المرحلة التالية. هاجيمي، لو بدا ما أفعله غريباً نوعاً، فلا تقلق، هه؟ سأفعله أفعله. فلا تنبس، ودعني فقط أفعله".

"لا مانع. افعلي ما يروق لكِ. لكني أحسّ بأني محظوظ، من تحديقكِ فيّ هكذا".

"أنتَ ملكي، هه؟"

"أجل".

"إذن فليس هناك ما يربككَ، أليس كذلك؟"

قلتُ "أظنكِ على حقّ. وسأعتاد عليه".

"تحمّل فحسب، مدّة أطول قليلاً. فهو حُلمي من زمن طويل".

"التطلّع في جسمي، كان حلمكِ؟ ملامسته عبر أطرافه، وعليكِ ملابسكِ؟"

ردّت "نعم. أتخيّل جسمكَ من عصور. شكل عضوكَ، كم سيتمدّد، كم سيتضخّم".

"ولماذا فكّرتِ فيه؟"

قالت، كمن فُطر على الشكّ "لماذا؟ أخبرتكَ إني أحبكَ. فما الضير في التفكير في جسم الرجل الذي أحبه؟ ألم تفكّر في جسمي؟"

قلتُ "فكّرتُ".

"أراهن أنكَ كنتَ تفكّر في جسمي، وأنتَ تستمني".

قلتُ "نعم. خلال المتوسّطة والثانوية"، ثم صحّحتُ نفسي "آه، فعلياً، ليس من زمن طويل".

"الأمر نفسه معي. كنتُ أفكّر في جسمكَ. النساء تفعلها أيضاً، كما تعرف".

فشددتُها لصقي من جديد، أُقبّلها ببطء. وانسلّ لسانها واهناً في فمي. قلتُ "أحبكِ، يا شيماموتو".

قالت "أحبكَ، يا هاجيمي. لا يوجد من أحبه غيركَ. أفلا تدعني أتملّى في جسمكَ أكثر قليلاً؟"

جاوبتُ "خذي راحتكِ".

فلفّت راحتها بنعومة حول ما هو تحت بطني. قالت "رائع. أودّ أن ألتهمها جميعاً".

"وماذا أفعل بعدئذٍ؟"

قالت "لكني أودّ أن ألتهمها جميعاً". كأنها تزنهما، ظلّت تحتفظ ببيضتيّ في راحتها زمناً، زمناً طويلاً. وهي تلعق وتمصّ عضوي ببطء

شديد، وحرص بالغ. ثم نظرت إليّ. "أول مرة، سأفعلها كما أريد، أتسمح لي؟"

قلتُ "لا مانع. افعلي ما يروق لكِ. عدا أن تلتهميني، طبعاً".

"أنا مرتبكة قليلاً، فلا تقل أيّ شيء، هه؟"

فوعدتُ "لن أفعل".

بينما كنتُ أركع على الأرض، أحكمَت يدها اليسرى حول خصري. فستانها عليها، لكنها تحرف بيدها الأخرى جوربها ولباسها. ثم تناولت عضوي وبيضتَيّ في يدها اليمنى، وراحت تلعقها. أما يدها الأخرى فتتسلّ تحت فستانها. ريثما راحت تمصّ عضوي، بدأت تحرّك يدها الأخرى بدوران بطيء.

فلم أنبس. خمّنتُ أن هذه طريقتها. راقبتُ حركات شفتيها، لسانها، وحركة يدها البطيئة تحت الجونلة. تذكّرتُ فجأة شيماموتو بموقف السيارات والفُسحة العريضة، وهي مُخشّبة، بيضاء كصفحة ورق. استدعيتُ بوضوح ما رأيته في عمق عينيها. فضاء داكن، جَمَد صلب كنهر جليد ما تحت الأرض. ثم صمت عميق يمتصّ كلّ صوت، لا يسمح بظهوره من جديد على السطح. صمت كليّ، مجرّد.

هي أول مرة أكون فيها وجهاً لوجه مع الموت. لم تكن عندي صورة محدّدة عن طبيعة الموت. لكنه كان فعلاً هناك، مباشرة أمام عينيّ، ناشراً جُنحيه على بُعد بوصات من وجهي. إذن، هاهو وجه الموت، كما ظننتُ. وقد تحدّث معي الموت، قائلاً إن وقتي سيحين، أيضاً، ذات يوم. كلّ امرئ سيغور، في النهاية، إلى تلك الأعماق الموحشة اللانهائية، أصل العتمة كلّها، صمت مجرّد من الرنين. أحسستُ أني أختنق، فانتابني خوف كظيم وأنا أحدّق في وَجرة مظلمة دون قاع.

إزاء هذه الأعماق السوداء المجلّدة، ناديتُ باسمها. شيماموتو، ناديتُ ثانية، وثانية. لكن صوتي ضاع في عدم لا نهائيّ. فصرختُ قدر المستطاع، لا شيء في أعماق عينيها تغيّر. ظلّ تنفّسها غريباً، كصوت ريح نابضة في الشقوق، أخبرتني أنفاسها المعهودة أنها لا تزال بهذا الجانب من العالم. لكن عينيها أخبرتاني أنها استسلمت بالفعل للموت.

ريثما أنظر في عمق عينيها وأنادي باسمها، ظلّ جسمي يتسحّب في تلك الأعماق. مثل شفّاط يمتصّ الهواء كلّه من حولي، ظلّ العالم الآخر يشدّني في ثبات، يقرّبني إليه. وحتى الآن أحسّ بقوته. كان راغباً فيّ.

أحكمتُ غلق عينيّ. أُنحّي الذكريات عن بالي.

مددتُ يدي أمسّد شعرها. لامستُ أذنيها، وأرحت يدي على جبينها. جسمها حارّ، ناعم. كانت تمصّ عضوي كمن يحاول امتصاص الحياة ذاتها. داومَت يدها، التي تتواصل بلغة إشارة سرية، في دوران الحركة ما بين ساقيها، تحت جونلتها. بعد وقت قصير، قذفتُ في فمها؛ فكفّت يدها تحت الجونلة عن الحركة وأغمضت عينيها. ابتلعت حتى آخر قطرة.

قالت شيماموتو "آسفة".

قلتُ "لا حاجة للاعتذار".

قالت "أول مرة، أردتُ أن أفعلها هكذا. أمر مريك، لكني كنتُ أرغبه. لكلّ منا جواز مرور، كما يُفترض. تعرف ما أعنيه؟"

جذبتها نحوي، أحكّ خدّي بخدّها. فسخن خدّها. رفعتُ شعرها، أقبّل أُذنها. وأنظر في عينيها. فأرى وجهي منعكساً فيهما. في عمق عينيها، في الأعماق اللانهائية دائماً، هناك نبع. وبعيد جداً، هناك نور. نور الحياة، كما أظنّ. ذات يوم سينطفئ، لكنه النور هناك، الآن. فابتسمت لي. بدت التغضّنات الصغيرة المعتادة في زاويتي عينيها. قبّلتُ الخطوط الدقيقة.

أخبرتني "الآن دورك لتخلع ملابسي. فافعل ما يروق لك".

قلتُ "قد لا أكون بارع الخيال مثلكِ، لكني أحبّ الطريقة المألوفة. لا مانع؟"

قالت "أمرك. وأنا أحبها أيضاً".

خلعتُ فستانها وحمّالة الثديين، أرقدتُها بالفراش، ثم رحتُ أُقبّل جسمها كلّه. أنظر إلى كلّ بوصة من جسمها، أتلمّس كلّ مكان، أبوس كلّ مكان. أحاول العثور على كلّ شيء لأخزنه بذاكرتي. في استكشاف متروٍ. أخذنا زمناً طويلاً للوصول إلى هذه النقطة، ومثلها، كان آخر ما أريد هو العَجلَة. أعقتُ نفسي طويلاً قدر الممكن، حتى لم أعد أتحمّل أكثر. فدسستُه فيها بطيئاً.

*

رحنا في النوم قبل الفجر. لا أعرف كم مرّة مارسنا الحب، برقّة أحياناً، بعاطفة أحياناً. مرة، وسط ذلك، وأنا داخلها، جُنّت بما يدور، فبكت بعنف وهي تدقّ على ظهري بقبضاتها. وطيلة الوقت، أحضنُها لصقي عنيفاً. إن لم أفعل، لأحسستُ أنها قد تتبدّد أشلاء. كنتُ أمسّد ظهرها مرة ومرات، لتهدأ. أقبّل عنقها وألامس شَعرها بأصابعي. لم تعد شيماموتو الباردة المنضبطة ذاتياً، التي أعرفها. ذابت الصلابة الجامدة داخلها، قليلاً قليلاً، ثم طافت على السطح. أحسستُ أن أنفاسها، علامات شاردة على الوجود. فحضنتُها لصقي، وسمحتُ لرِجفتها أن تنزّ بداخلي. وقليلاً قليلاً، هكذا أصبحَت ملكي.

قلتُ "أريد أن أعرف كلّ ما يُفترض أن أعرفه عنكِ؟ كيف قضّيتِ الحياة إلى الآن، أين تسكنين. متزوّجة أم لا. كلّ شيء. لا أسرار، فلم أعد أطيقُ صبراً".

قالت "غداً. غداً سأخبركَ كلّ شيء. فلا تسأل إلى الغد. واصل على الطريقة التي أنتَ عليها اليوم. لو أخبرتكَ الآن، فلن تعود إلى ما عليه".

"أنا لن أعود، على أيّ حال. ومن يدري، فقد لا يأتي الغد. وإن لم يأت، فسينتهي بي المآل إلى جهل مُطبق".

قالت "آمل أن لا يأتي الغد. فلا تعرف قطّ".

أوشكتُ على الحديث، لكنها أسكتَتني بقُبلة.

قالت "آمل أن يلتهمنا غداً نسر أقرع. هل يفعلها النسر الأقرع؟"

"ممكن. فالنسور القُرع تلتهم الفنّ، وأيام الغد أيضاً".

"والنسور العادية تلتهم..".

".. جيف المجهولين. مختلفة كلياً عن النسور القُرع".

"إذن، النسور القُرع تلتهم الفنّ وأيام الغد؟"

"صحيح".

"توافق لطيف".

"وحلواها، قضم الكتب التي تحت الطبع".

فضحكت شيماموتو. قالت "عموماً، بانتظار الغد".

*

وجاء الغد. حين استيقظتُ، كنتُ وحدي. توقّف المطر، وهلّ نور صبح مشرق شفّاف من نافذة غرفة النوم. أشارَت ساعة المنبّه أن الوقت بعد التاسعة. ولم تكن شيماموتو بالفراش، مع أن ضغطة خفيفة جنبي في الوسادة قد تُلمّح أين هي، لم تعد بأيّ مكان مرئيّ. فنهضتُ من الفراش، ذهبتُ إلى غرفة المعيشة للبحث عنها. نظرتُ في المطبخ، غرفة الأولاد، الحمّام. لا شيء. ملابسها راحت، كذا حذاؤها. أخذتُ نفَساً عميقاً،

أحاول أن أُعيد نفسي إلى الواقع. لكنه واقع كالعدم الذي من قبل لم أعهده: واقع لا يبدو أنه مطابق.

ارتديتُ ملابسي، مضيتُ للخارج. كانت سيارتي BMW هناك، حيث تركتها الليلة السابقة. ربما استيقظت مبكراً، وخرجت تتنزّه. فتّشتُ عنها حول المنزل، وركبتُ سيارتي، إلى أقرب بلدة. لكن لا شيماموتو. عدتُ إلى الشاليه، لم تكن هناك. رحتُ أفكّر، قد تكون خلّفت ورقة، فطفتُ المنزل. لم أجد ورقاً. لا أثر بأنها هناك.

من دونها، المنزل هامد فارغ. والهواء يُفعمه طبقات رمل من الغبار، مع كلّ نفَس تلتصق بحلقي. فتذكّرتُ الاسطوانة، اسطوانة نات كنج كول القديمة التي أهدتني إياها. لكني، مع البحث قدر استطاعتي، لم أجدها بأيّ مكان.

اختفت شيماموتو من حياتي، مرة أخرى. وهذه المرة، لم تُخلِف شيئاً أُعلّق آمالي عليه. دونما أيّ "محتملات". ولا "فترات".

ـ ١٥ ـ

عدتُ إلى طوكيو، بعد الرابعة بقليل. كلّي أمل أن شيماموتو قد تعود، ظللتُ حتى بعد الظهر في شاليه هاكون. كان الانتظار عذاباً، فرحتُ أقتل الوقت بتنظيف المطبخ وإعادة ترتيب الملابس في المنزل. الصمت ثقيل الوطأة؛ وكانت الأصوات المتناوبة للطير والسيارات تصدمني كشيء غير طبيعي، دون تزامن. كلّ صوت يدور ويرتطم تحت ثقل قوة لا يمكن وقفها. وسط هذا، أنتظر حدوث شيء. يجب أن يحدث شيء، شعرتُ بتوكيدٍ كافٍ. لا يمكن أن ننتهي هكذا.

لكن، لم يحدث شيء. لو اتّخذت قرارها، فلم تكن شيماموتو من نوعية النساء التي قد تبدّله. كان عليّ العودة إلى طوكيو. بدا الأمر متكلّفاً، لكن لو حاولت الاتّصال بي، فستفعل من الحانة. على أيّ حال، فلن يُحدث البقاء في الشاليه أية نتيجة.

وأنا أسوق عائداً، حاولتُ قسر نفسي على التركيز. فقد ضيّعتُ المنحنيات وعبرتُ إشارات حمراء وانحرفتُ في حارة مرور خطأ. بعد أن وصلتُ موقف سيارات الحانة، اتّصلتُ بالبيت من هاتف عام. أخبرتُ يكيكو أني عدتُ وأني ذاهب للعمل.

بدا صوتها خشناً جافاً "جعلتني أقلق. على الأقلّ، كان يمكنك الاتصال".

قلتُ "أنا بخير. فلا حاجة للقلق". لم تكن عندي فكرة عما بدا صوتي إليها. "لم يكن عندي وقت. سأمضي إلى المكتب لمراجعة الحسابات، ومن ثم إلى الحانة".

في المكتب، جلستُ إلى النضد، أحاول نوعاً تزجية الوقت حتى المساء. استعدتُ حوادث الليلة السابقة. أظنّ شيماموتو استيقظت وأنا نائم، ربما لم يطرف لها جفن، ثم رحلت قبل الفجر. كيف عادت للمدينة، لا أعلم. فالطريق العام يبعد كثيراً، وفي هذه الساعة من الصبح يستحيل تقريباً أن تستقلّ باصاً أو تأخذ أُجرة في هاكون، ما بين التلال. كما أنها كانت بكعب عالٍ.

ماذا دعا شيماموتو للرحيل عني هكذا؟ طول الوقت وأنا أسوق عائداً إلى طوكيو، ظلّ السؤال يعذّبني. أخبرتها أني أصبحتُ ملكها، وقالت إنها ملكي. وبإسقاط كلّ الدفاعات، فقد مارسنا الحبّ. مع ذلك، تركتني وحيداً، دون كلمة تفسير. كما أخذت الاسطوانة التي قالت إنها هدية. هناك إيقاع أو سبب لتصرّفها، لكنه تفكير منطقيّ بعيد. كلّ ذيول التفكير، مرتبة ثانوية. أرغمتُ نفسي على التفكير، فانتهى بي المآل إلى رأس خافق، بليد. أدركتُ، كم أنا مرهق. فجلستُ على الفراش بمكتبي، ملتُ إلى الحائط وأغمضتُ عينيّ. مجرّد أن أُغمضتهما، لم أستطع غصبهما على الفتح. كلّ ما استطعتُ فعله، التذكّر. كعُقدة مربوطة إلى ما لانهاية، ظلّت ذكريات الليلة السالفة تُعيد تمثيل نفسها، مرة ومرات. جسم شيماموتو. جسمها العاري وهي ترقد جنب المدفأة وعيناها مغمضتان، وكلّ تفصيلة: رقبتها، ثدياها، جنباها، شَعر عانتها، أعضاؤها الجنسية، ظهرها، خصرها، ساقاها. كلّها قريبة، واضحة. كانت أوضح، وأقرب، مما عليه وهي حقيقية.

وحدي في تلك الغرفة الصغيرة، أنساق مسرعاً إلى الخبل، مع أوهامي المتحرّكة. ففررتُ من البناية، رحتُ أهيم على غير هدىً. في النهاية، ذهبتُ إلى الحانة، ثم حلقتُ ذقني بحجرة الإيداع. لم أكن قد غسلتُ

وجهي طيلة اليوم. ولا تزال ملابس اليوم السابق عليّ كما هي. لم يقل مستخدميّ شيئاً، مع أني أحسستُ بهم يحدّقون في بشكل غريب. لو ذهبتُ للبيت الآن ووقفتُ أمام يـكيـكو، أعرف أني سأعترف. كم أحبّ شيماموتو، قضيتُ معها الليلة البائدة، وكنتُ على وشك أن أتخلّى عن كلّ شيء - بيتي، ابنتيّ، عملي.

أعرف أنه عليّ أن أُبلغ يـكيـكو كلّ شيء. لم أستطع. ليس بعد. لم تعد عندي طاقة لتمييز الصواب من الخطأ، أو حتى فهم ما يحدث. فلم أذهب إلى البيت. رحتُ إلى الحانة أنتظر شيماموتو، مع علمي الكامل أن انتظاري ليس له طائل. راجعتُ أولاً الحانة الأخرى لأرى إن كانت هناك، ثم انتظرتُ في روبين نست إلى أن أُغلقت. تكلّمتُ مع قلّة من الروّاد، لكن ضمن قاعدتي الثابتة. ضبّطتُ أصوات السماع، ورأسي ممتلئ طيلة الوقت بجسم شيماموتو. كيف رحّب بي فرجها بنعومة تامة. وكيف صرخت باسمي. كلّما يرنّ الهاتف، كان قلبي ينخلع.

بعد إغلاق الحانة وتوجّه الجميع عائدين، بقيتُ هناك على البار، أشرب. لا يهمّ كم شربتُ، لكني لم أسكر. في الحقيقة، كلّما شربتُ، صفا دماغي أكثر. كانت الثانية صباحاً حين وصلتُ البيت، ويـكيـكو سهرانة تنتظرني. لم أستطع النوم، فرُحتُ أشرب ويسكي وحدي على طاولة المطبخ. دخلت مع كأسها، تنضمّ لي.

قالت "ضع موسيقى". فالتقطتُ شريطاً، أزلفته في فراغه وأدرتُ الصوت هادئاً كي لا أوقظ الصغار. جلسنا عبر الطاولة صامتَين، فترة، ونحن بعيدان عن بعضنا الآخر، نشرب ويسكي.

قالت يـكيـكو، تُحدّق في مباشرة "أظنّ لديك شخص آخر تحبه".

فأومأتُ. لكلماتها ثُقل وتخطيط مُحدّد. كم مرة دارت بها في خيالها، ارتقاباً، حتى هذه اللحظة؟

"وأنكَ تحبّ هذا الشخص. لا تلعب بذيلكَ فقط".

قلتُ "صحيح. ليست مجرد نزوة. لكن ليس بالضبط ما تتخيلينه".

سألت "كيف علمتَ بما أفكّر فيه؟ هل تُصدّق فعلاً أنكَ تعلم بما أفكّر فيه؟"

لم أستطع الردّ. كانت يكيكو صامتة أيضاً. والموسيقى تعزف بروية. فيفالدي[1] أو تليمان[2]. واحد منهما. فلم أستطع أن أتذكّر اللحن.

قالت "أظنّ أنكَ لا تعلم بما أفكّر فيه". تتحدّث ببطء، وتلفظ كلّ كلمة بوضوح، كمن يفسّر شيئاً للأطفال. "لا أظنّ أنه لكَ علم به".

حين رأت أني لا أستجيب، رفعَت كأسها وشربت. ثم هزّت رأسها، ببطء شديد. "آمل أن تعرف أني لستُ غبية. فأنا أعيش معكَ، وأنام معكَ. وأعرف من زمن بعيد، أنكَ تحبّ شخصاً آخر".

نظرتُ إليها، ساكتاً.

فواصلت "لا ألومكَ. إن كنتَ تحبّ شخصاً آخر، فليس هناك الكثير أمام أيّ امرئ. حبّ من تحبّ. فلم أعد أكفيكَ. أعرف. لقد مضينا على ما يرام معاً وكنتَ ترعاني جيداً. سعيدة بالعيش معكَ. وأظنّ أنكَ لا تزال تحبّني، لكن لا مهرب من الحقيقة، أني لم أعد أكفيكَ. كنتُ أعرف

(١) أنطونيو فيفالدي: (١٦٧٨ ـ ١٧٤١)، موسيقار إيطاليّ، ألّف خمسين أوبرا كلاسيّة. (م)

(٢) جورج فيليب تليمان: (١٦٨١ ـ ١٧٦٧)، موسيقار ألمانيّ، ألّف كثيراً من الكلاسيات. (م)

أنه سيحدث. فلا ألومكَ للوقوع في غرام امرأة أخرى. كما أني لستُ غاضبة. يُفترض أن أغضب، لكني لن أغضب. أحسّ فقط بالألم. بكثير من الألم. فكّرتُ في بالي كم أنه سيؤذي، لكني مخطئة".

قلتُ "آسف".

قالت "لا حاجة بكَ للاعتذار. لو أردتَ أن تتركني، فلا بأس. لن أنبس بكلمة. فهل تريد أن تتركني؟"

جاوبتُ "لا أعرف. هل لي أن أفسّر؟"

"تقصد ما بينكَ وتلك المرأة؟"

قلتُ "نعم".

فهزّت رأسها بحسم. "لا أريد سماع شيء عنها. لا تجعلني أعاني أكثر مما أعانيه فعلياً. لا يهمّني أيّ علاقة أقمتما، وأيّة خطط دبّرتما. لا أريد سماع شيء. ما أريد أن أعرفه، هو إن كنتَ تريد أن تتركني أم لا. فأنا لا أحتاج المنزل، ولا الفلوس ـ ولا شيء. لو أردتَ الأولاد، خُذهم. أنا جادّة. لو تريد أن تتركني، فقط انطق. ذلك كلّ ما أريد أن أعرفه. لا أريد سماع شيء عداه. نعم، أو لا".

قلتُ "لا أعرف".

"تقصد أنكَ لا تعرف إن كنتَ تريد أن تتركني أم لا؟"

"لا. لا أعرف إن كنتُ أستطيع الردّ".

"ومتى ستعرف؟"

هززتُ رأسي.

فندّت عنها آهة. "طيب، إذن، خُذ وقتكَ، وتدبّر الأمر. لا يهمّني انتظار. خُذ وقتكَ طويلاً قدر ما تحبّ".

*

نمتُ، بعدئذ، على الكنبة في غرفة المعيشة. تصحو البنتان أحياناً بمنتصف الليل، تسألانني لماذا أنام هناك. فأوضّح إن شخيري عال هذه الأيام، وهكذا قرّرتُ أنا وأمهما أن ننام بغرفتين منفصلتين. وإلا فلن يزور النوم ماما. تنضمّ إليّ إحدى الطفلتين على الكنبة. أحضنها بشدّة. وأسمع أحياناً يـوكيكو، في غرفة النوم، تبكي.

طيلة الأسبوعين التاليين، كنتُ أقضي النهار في إحياء الذكريات بلا نهاية. فيما يخصّ الليلة التي قضيتُها مع شيماموتو، أستدعي كلّ تفصيلة، وأحاول استنباط معنىً. أحاول العثور على رسالة. أتذكّر حرارتها وهي بين ذراعيّ. كان ذراعاها يبرزان من كُمّي فستانها الأبيض. أغاني نات كنج كول. نار المدفأة. أستعيد كلّ، وأيّ، كلمة نطقناها.

من بين هذه الكلمات، كلمتها: لا يوجد معي حل وسط. ولماذا؟ لأن متعلّقات الحلّ الوسط هناك. في مكان لا توجد فيه متعلّقات الحلّ الوسط، لا يوجد حلّ وسط.

وكلمتي: قرّرتُ مسبقاً، شيماموتو. فكّرتُ فيه حين رُحتِ، وأعملتُ رأيي.

تذكّرتُ عينيها، وهي تنظر لي بالسيارة. نظرة متوتّرة أحرقَت خديّ. كانت أكثر من مجرد تحديق. فرائحة الموت تحوّم حولها. تخطّط لتموت. ذلك مبرّر مجيئها إلى هاكون - لتموت معي.

"سآخذكَ كلّكَ. فهل تفهم؟ تفهم ما أعنيه؟"

حين قالت شيماموتو ذلك، كانت تريد حياتي. الآن، فقط، فهمتُ.

توصّلتُ إلى نتيجة نهائية، وكذلك هي. فلماذا عميتُ؟ بعد ليلة من ممارسة الحبّ، خطّطَت لتحرف مقود السيارة، في طريق عودتنا إلى

طوكيو، فتقتلنا كلينا. لم يتبق أمامها خيار آخر. لكن شيئاً أوقفها. ولدى كبح ما بداخلها، اختفت.

أيّة نهاية مميتة مستميتة، وصلت إليها؟ ولماذا؟ والأهمّ، ماذا دفعها إلى مثل هذه الاستماتة؟ لماذا، في النهاية، كان الموت هو المهرب الممكن الوحيد؟ أظلّ أنقّب عن أدلة، أُمثّل دور التحرّي، ثم أخرج خاوي الوفاض. لقد تلاشت، مع أسرارها. لا "محتملات"، أو "فترات"، هذه المرة - مجرّد أنها انسلّت، تبتعد في سكينة. مع أن جسمينا اتّحدا واحداً، لكنها رفضَت في النهاية أن تفتح قلبها.

هذه الأشياء، لو خرجت يوماً، فلن تعود حيث بدأت، هاجيمي، كانت ستقولها طبعاً. عند منتصف الليل، وهي ترقد على الكنبة، سمعتُ صوتها ينسج هذه الكلمات. كما قلت، كم سيكون رائعاً لو استطاع كلانا الخروج إلى مكان، لنبدأ الحياة من جديد. لكن لسوء الحظّ، ليس لي أن أخرج مما حيث أنا. استحالة فيزيقية.

ومن ثم تقف شيماموتو فتاة السادسة عشرة ثانية، أمام عبّاد الشمس بالحديقة، وهي تبتسم خجلة. لم يكن عليّ أن أراكَ. فأنا أعرف، من البداية. وتنبأتُ أنه مستحيل. لكن لم أتحمّل. فكان عليّ أن أراكَ وحسب، وحين أتيتُ، تكلّمتُ معكَ. هاجيمي - هذه أنا. لم أخطّط لذلك، لكن كلّ ما ألمسه ينهار في النهاية.

لن أراها قطّ، عدا بذاكرتي. كانت هنا، والآن راحت. لا يوجد معي حلّ وسط. وكلمة "محتمل" قد تجدها جنوب الحدود. لكن لا توجد غرب الشمس، أبداً، عدماً.

أتمعّن في الصحف، كلّ يوم، أعلاها وأسفلها، بحثاً عن انتحار امرأة. يقتل ثلّة من الناس أنفسهم، لكني اكتشفتُ أنها شخص آخر. وقدر ما

نما لعلمي، فهذه المرأة، ذات السبعة والثلاثين، الجميلة، صاحبة أجمل ابتسامة، لا تزال حية. لكن، خرجت مني للأبد.

*

تمر أيامي، سطحياً، نفسها كالسابق. أسوق بالبنتين ذهاباً إياباً لمدرسة الحضانة، ويغنّي ثلاثتنا الأناشيد، ونحن على الطريق. أرى، أحياناً، في صفّ السيارات أمام مدرسة الحضانة، المرأة الشابة بمرسيدس 260E، ونتكلّم. جعلني الكلام معها قادراً على السلوان، فترة على الأقلّ. موضوعاتنا محدودة، كالعادة. نتبادل آخر الأخبار عن جيران آوياما، الأطعمة الطبيعية، الملابس. المعهود.

في العمل، أيضاً، أقوم بدوراتي المعتادة. ألبس بدلتي، وأذهب للحانتين كلّ ليلة، أتكلّم قليلاً مع الروّاد، أستمع إلى آراء وشكاوى مستخدميّ، أتذكّر أشياء قليلة مثل منح هدية عيد ميلاد لمستخدَم، دعوة أية موسيقيين يتصادف مرورهم إلى العشاء، فحص الأمزجة للتأكّد من طيب مذاقها، التأكّد أن البيانو مضبوط النغمات، وعيناي على السكارى المشاكسين بالخارج - أفعل هذا كلّه. أسوّي أيّة مشاكل في ومضة عين. كلّ شيء يمشي كالساعة، لكن الإثارة راحت. مع ذلك، لا أرتاب في أحد. سطحياً، أنا نفسي دائماً. أكثر وداً، ألطف، أشدّ ثرثرة عن السابق. أجلس إلى مقعد البار العالي، أراعي مؤسّستي، كلّ شيء يبدو رتيباً، دون بريق. لم تعد هناك قلاع ملوّنة محفورة بعناية في الهواء، وما أراه أمامي ليس إلا حانة مزعجة نمطية؛ مصطنعة، تافهة، رثّة. إعداد المسرح، الديكور المشيّد لأيّ غرض يجعل السكارى يتخلّون عن نقودهم. أية أوهام عن المقبرة اختفت ضمن نفثة دخان. كلّ ذلك لأن شيماموتو لن

تُشرّف هذه الأماكن، ثانية. لن تجلس على البار، ثانية؛ لن أرى ابتسامتها وهي تطلب مشروباً، ثانية.

ونظامي في البيت لم يتغيّر. أتناول العشاء مع العائلة وآخذ الطفلتين أيام الآحاد في نزهة أو حديقة الحيوان. يكيكو، ظاهرياً على الأقلّ، تعاملني كما كانت. نتكلّم عن كلّ شيء. مثل أصدقاء طفولة، صدَف وأن سكنوا تحت سقف واحد. لكن لا نتفوّه بكلمات معينة، لا نتطرّق إلى حقائق معينة. وما من عداء مكشوف في الهواء. لكن لا يُلامس بعضنا الآخر. ننام، في الليل، منفصلَين؛ أنا على الكنبة، ويكيكو بغرفة النوم. هذا هو التغيّر الوحيد في حياتنا، ظاهرياً.

لا أتحمّل أحياناً حقيقة أننا نمارس حركات، نمثّل أدواراً مُفترَضَة. هناك شيء حاسم بيننا ضاع، مع أننا نتدبّر حياتنا كالسابق. إحساس فظيع. هذه الحياة الفارغة خلو المعنى، تؤذي يكيكو من العمق. وددتُ أن أردّ على سؤالها، لكني لم أستطع. طبعاً لم أكن أريد أن أتركها، لكن من أنا لأقول هذا؟ أنا؛ الذي كان على وشك أن يرمي بعائلته كلّها وراء ظهره. فقط لأن شيماموتو راحت، ولن تعود، وهو ما لا يعني أنه بمقدوري الرجعة جذلان إلى الحياة التي كنتُ عليها، والتظاهر بأنه لم يحدث شيء. فليست الحياة بهذه البساطة، ولا أظنّها ستكون. بالإضافة، فإن صور شيماموتو المتلبّثة لا تزال واضحة، حقيقية. كلّما أغلق عينيّ، تطفو كلّ تفصيلة من جسمها أمامي. تتذكّر راحتاي ملمس جلدها وصوتها الهامس في أذني، لا تتركني. لم أستطع ممارسة الحبّ مع يكيكو، وهذه الصور مفروسة في دماغي بصلابة.

أريد أن أكون وحدي، لا أعرف عدا ذهابي للسباحة كلّ صباح في حمّام السباحة. ثم أمضي إلى مكتبي، أُحدّق في السقف، وأفقد نفسي

بأحلام اليقظة عن شيماموتو. مع سؤال يـ‍كـ‍يـ‍كـ‍و معلّقاً أمامي غير قابل للردّ، أعيش في فراغ. لن أواصل هكذا إلى الأبد. لم يكن أمراً صحيحاً. فأنا كائن بشريّ، زوج، أب، عليّ تحمّل مسؤولياتي. لكن طالما هذه الأوهام تحيط بي، فهي تشلّني. وكان الأمر أسوأ حين تمطر، لأني عندئذ ألتصق بوهم أن شيماموتو ستظهر: تفتح الباب بهدوء، تدخل بعطر مطرها. أتصوّر ابتسامة وجهها. وحين أقول خطأ، تهزّ رأسها في صمت، وتبتسم طول الوقت. فقدَت كلماتي قوّتها، مثل قطرات مطر مغرّاة على النافذة، تنفصل بطيئاً عن مرافقة الواقع. في الليالي المطيرة، أتنفّس بصعوبة. فالمطر يدفع الزمن إلى مراقصة الواقع.

حين تُنهكني أحلام اليقظة، أحدّق في مشاهد الخارج. كأني منبوذ بأرض قاحلة، تصحّرت. رؤاي تسحب اللون من العالم. كلّ شيء، أو مشهد، أمامي، مُسطّح، مجرّد بديل مؤقّت. كلّ شأن صار رملياً، بلون الرمل. وتـ... كـ...ني الكلمات الفاصلة لزميل الدراسة القديم، هكذا الأمور. طرق مختلفة للحياة. وطرق مختلفة للموت. في النهاية، لا فرق. فكلّ ما يبقى فلاة.

*

الأسبوع التالي، وأنا أرقب في انتظار، كمنت لي أحداث غريبة، واحداً بعد آخر. فقد تذكّرتُ صباح الاثنين، دونما سبب محدّد، مظروف المائة ألف ين، وقرّرتُ البحث عنه. وضعته من سنين طويلة بدرج مكتبي، درج مغلق، الثاني من أعلى. فتّشتُ المكتب، فوجدتُ أني وضعتُ أشياء أخرى ثمينة مع المظروف في الدرج؛ وعدا التفقّد المكرّر لرؤية ما هناك، فلم ألمسه قطّ. لكن المظروف راح. كان هذا حدثاً غريباً عجيباً، حيث لا

توجد ذكرى أكيدة لتحريكه. كنتُ موقناً. وللتأكّد فقط، جذبتُ الأدراج الأخرى أفتحها وأتمعّن فيها من أعلى لأسفل. لا مظروف.

حاولتُ أن أتذكّر متى رأيته آخر مرة. فلم أتثبّت من تاريخ معيّن. لم يكن من زمن طويل، لكنه ليس حديثاً، أيضاً. من شهر، ربما اثنين. ثلاثة على الأكثر.

جلستُ محتاراً على كرسيي، أُحدّق في الدرج. هل اقتحم أحدهم الغرفة، فتح الدرج وسرق المبلغ. لم يكن محتملاً، مع ذلك؛ فالدرج يضمّ نقوداً وأشياء أكثر قيمة، لم تُمسّ. لكني جعلته من حقائق الممكن. أو، ربما تصرّفتُ دون وعي في المظروف ولسبب ما محوته من خيالي. لا بأس، قلتُ لنفسي، فماذا يهمّ؟ كنتُ على وشك أن أتخلّص منه ذات يوم. أنقذتُ نفسي من الورطة، أليس صحيحاً؟

لكن بمجرد يقيني أن المظروف اختفى، تبادل وجوده وعدم وجوده مكانهما ضمن وعيي. إحساس غريب كالدُوار، أمسك بخناقي. تولّدت عندي قناعة بأن المظروف لم يكن موجوداً أصلاً، وتضخّمت في داخلي، بعنف داعبت خيالي، تطحنه، تلتهمه بين جشع التوكيد بأن المظروف كان حقيقة.

لأن الذاكرة والأحاسيس غير يقينية، متحيّزة، فنحن نعتمد دائماً على واقع معيّن - لنُسمّه الواقع البديل - للتثبّت من واقعية الأحداث. أما الحقائق المترامية، التي نتعرّف عليها قدر الممكن، فهي تبدو حقائق وحسب لأننا نصنّفها هكذا، تستحيل تميّزاً يصعُب رسمه. وللتثبّت من الواقع كواقع، نحتاج إلى واقع آخر للتحقّق من الواقع الأول. كما أن الواقع الآخر يتطلّب واقعاً ثالثاً يصلُح له أرضية. هي سلسلة لانهائية تتخلّق داخل وعينا، لكن الحفاظ على هذه السلسلة هو ما يُبدع ذلك الحسّ الذي نشعر به فعلاً

هنا، أننا موجودون. لكن خطأ وقع بمثل هذه السلسلة، فصرنا في ضياع. ما هو الحقيقيّ؟ هل الواقع على هذه الناحية من الكَسر في السلسلة؟ أم هناك، على جانب آخر؟

أحسستُ لدى هذه النقطة، بنوع من الحسّ المقطوع. فأغلقتُ درجي، قرّرتُ نسيان الأمر كلّه. فلا بد أني رميتُ المبلغ حين أخذته أول مرة. الحفاظ عليه خطأ.

*

بظهيرة أربعاء الأسبوع نفسه، كنتُ أسوق إلى جاين هيجشدوري، فرأيتُ امرأة تشبه شيماموتو. تلبس بنطلوناً قطنياً أزرق، معطفاً عاجياً، وحذاء رياضياً أبيض. تجرّ رِجلها وهي تسير. بمجرد أن رأيتها، تجمّد كلّ ما حولي. فحرفت كتلة هواء طريقها إلى حلقي من أعلى صدري. فكّرتُ، شيماموتو. سقتُ أمامها لأتثبّت من المرآة الخلفية، لكن وجهها اختفى في الزحام. فضربتُ فراملي عنيفاً، فتلتُ صوت نفير صاخب من سيارة خلفي. طريقة إعاقة المرأة، وطول شعرها؛ هي شيماموتو، بالضبط. أردتُ ركن سيارتي فوراً، لكن أماكن الوقوف على طول الطريق كلّها ملأى. بعد مائتي متر أو أبعد، وجدتُ مكاناً أخيراً، استطعتُ حشر سيارتي فيه، ثم جريتُ عائداً لأجدها. لكنها لم تعد مرئية بمكان. جريتُ حولي كالمعتوه. رِجلها معطوبة، فلن تستطيع المضيّ بعيداً، هكذا أخبرتُ نفسي. كنتُ أُنحّي عني الناس، أعبر الشوارع خلافاً لقواعد السير، أجري مُجاوزاً المارّة، وأنا أنظر إلى كلّ عابر فوّته. نقع قميصي بالعرق. مع ذلك، فوراً، بزغ عليّ إلهام. فقد كانت تجرّ الرِجل المعاكسة. كما أن رِجل شيماموتو لم تعد معطوبة.

فهززتُ رأسي، أتأوّه من العمق. حصل بي خطأ. شعرتُ بالدوخة، وتسحّبت مني قوّتي. فملتُ إلى شارة مرور المشاة، وأنا أحدّق في قدميّ فترة. تحوّل الضوء من أخضر إلى أحمر، ومن أحمر لأخضر ثانية. عبر الناس الشارع، انتظروا، ثم عبروا من جديد، وأنا ثابت، أتشبّث بالعمود، لاهث الأنفاس.

رفعتُ بصري فجأة، فرأيتُ وجه ايزومي. كانت في أُجرة وقفت أمامي مباشرة. من النافذة الجانبية، تُحدّق فيّ. عند الضوء الأحمر، فرملَت الأُجرة، وتفصلني عن وجهها ثلاثة أقدام، على الأكثر. لم تعد فتاة السابعة عشر ربيعاً، تلك التي أعرفها، مع ذلك تعرّفتُ عليها فوراً. هي التي حضنتها بين ذراعيّ من عشرين عاماً خلت، أول فتاة قبّلتها. الفتاة التي خلعت، في ظهيرة خريف من زمن طويل، ملابسها وضيّعَت رباط جوربها. قد يتغيّر الناس عبر عشرين عاماً، لكني عرفتُ بأنها هي. الأولاد يخشونها، هكذا قال صاحبي القديم. حين سمعتُه، لم أفهم ما يعنيه. لم أدرك ما كانت هذه الكلمات تسعى لنقله. لكني فهمتُ الآن، وايزومي مباشرة أمام عينيّ. لم يكن بوجهها ما يمكن أن تُسمّيه تعبيراً. لا، ليست هذه الدقّة الكاملة لتوصيفه. سأوصّفه هكذا: مثل غرفة سُلبَت منها قطعة الأثاث الأخيرة، زال منها ما يمكن أن تُسمّيه تعبيراً، دون أن يُخلف شيئاً وراءه. لا أثر لمشاعر ترعى على وجهها؛ فقد كان كقاع محيط عميق، صامت، ميت. وبهذا الوجه خلو التعابير كلياً، تُحدّق فيّ. أظنّ، على الأقلّ، أنها نظرَت إليّ. فقد حدجَتني عيناها مباشرة، إزائي، مع أن وجهها لا يبين عن شيء. وربما أبان عن: فراغ لانهائيّ.

وقفتُ هنـاك مشدوهاً، فاقـداً للنطق. لا أكـاد أُقيم أودي، وأتنفّس بطيئاً. خلال لحظة أو اثنتين انهار إحساسي بنفسي، ذابت خطوطه العامة في فوضى سميكة سائلة. فمددتُ يدي دون وعي أتلمّس نافذة السيارة، ألاطف سطح زجاجها بأطراف أصابعي. لم تكن عندي فكرة، لماذا. فارتاع عابران، ووقفا يُحدّقان. لكني لم أكن أتملّك نفسي. عبر الزجاج، لاطفتُ في رويّة ذلك الوجه غائم المعالم. لكن أيزومي لم تُحرّك فيه عضلة، أو ومضة. فهل كانت ميتة؟ لا، ليست ميتة. لا تزال حية، في عالم غير وامض. في عالم صامت عميق، خلف لوح من الزجاج، تعيش. وتنطق شفتاها الساكنتان بعدم لانهائيّ.

تغيّر الضوء أخيراً إلى أخضر، وتحرّكَت الأُجرة منطلقة. ظلّ وجه ايزومي ثابتاً حتى النهاية. فوقفتُ مزروعاً بهذه البقعة، أرقب، حتى ابتلع جيشان المرور في طريقه تلك الأُجرة.

*

سرتُ عائداً لسيارتي، أسترخي بالمقعد. عليّ الخروج من هناك. وريثما كنتُ على وشك تشغيل المحرّك صدمتني موجة غثيان فجائية، كأني سأقيء أمعائي للخارج. لكني لم أتقيأ. أرحتُ يديّ على المقود، وجلستُ هناك خمس عشرة دقيقة. نقع كوعاي بالعرق، ونفث جسمي رائحة فظيعة. لم يكن هو الجسم الذي أحبته، برقّة، شيماموتو. كان جسم رجل بمنتصف العمر، يُصدر رائحة نتن لاذع.

بعد دقائق، جاء شرطيّ نحو سيارتي، طرق على النافذة. فكَرَرتُها أُنزل الزجاج. قال، وهو يتطلّع داخلها "الوقوف هنا ممنوع، يا سيدي. فحرّك سيارتكَ إلى بعيد". أومأتُ، وقمتُ بتشغيل المحرّك.

سألني الشرطيّ "تبدو متعباً. هل تحسّ بمرض؟"

فهززتُ رأسي، دونما كلمة. وبدأتُ القياد.

استغرقتُ ساعات لأشفى. كنتُ منزوع القوى، كلياً، وخلفي محارة فارغة. صوت أجوف يتردّد عبر جسمي. فركنتُ سيارتي داخل مقبرة آوياما، وأنا أحدّق دون هدف من زجاج سيارتي فيما وراء السماء. ايزومي، تنتظرني هناك. تنتظرني، في مكان، دائماً. تنتظرني، في ركن شارع، وراء لوح زجاج، أن أتبدّى. ترقُبني. وأنا لا ألاحظ.

فيما بعد أيام، لم أستطع الحديث. كنتُ أفتح فمي لأتكلّم، لكن الكلمات تختفي، كأن ايزومي كانت تتولّى أمر هذا العدم اللفظيّ.

بعد هذه المواجهة الغريبة، بدأت تذكارات شيماموتو تشحُب، تدريجياً. وعاد اللون إلى عالمي، فلم يعد يتملّكني ذلك الحسّ العاجز بأني أسير على سطح القمر. بشكل غامض، كمن ينظر من نافذة زجاجية، رأيتُ التغيرات التي تحدث لشخص آخر، واستطعتُ تبيان التغيّر اللّحظيّ في الجاذبية، ثم كان أن خرجتُ في هدأة مما كان يعلَقُ بي من مستنقع.

كان بي شيء عصيٌّ، واختفى في سكينة، للأبد.

*

بينما كان الثلاثيّ يستريحون، نهضتُ إلى عازف البيانو، أخبرته ألاّ يعود لعزف "عشاق منحوسون"، وأنا أرسم أكبر ابتسامة ودّ قدرتُ عليها. "لقد عزفتها طويلاً من أجلي، كفاية. حان وقت الكفّ عنها".

نظر إليّ، كمن يزن شيئاً بباله. فكلانا أصدقاء، نتشارك قليلاً من الشراب، ونحن نتسامر في حوارات مهذّبة مألوفة.

قال "لا أفهم بالضبط. لا تريدني أن أحيد عن طريقتي في عزف هذه الأغنية؟ أم لا تريدني أن أعزفها ثانية؟ هناك فرق كبير، وأحبّ أن أتوضّح منكَ في هذا".

قلتُ "لا أريدكَ أن تعزفها، هه؟"

"لا تحبّ طريقة عزفي لها؟"

"ليست عندي مشكلة بعزفكَ. فهو عظيم. وما من كثير بمقدوره التعامل مع هكذا لحن كما تؤدّيه".

"إذن، فاللحن نفسه لا تريد سماعه؟"

فأجبته "لنقل هذا".

قال "يبدو عندي مثل كزابلانكا![1]".

قلتُ "أظنّ".

ومنذئذٍ، حين يلمحني عازف البيانو، يتوقّف عند "والزمن يمرّ".

وسبب أني لم أعد أريد سماع هذا اللحن ثانية، لا شأن له بذكريات شيماموتو. لكن، لم تعد الأغنية تمثّل عندي ما اعتادت أن تمثّله. لماذا، لا علم لي. فالشيء الخاص الذي وجدته في هذا اللحن من زمن، ضاع. عاد لحناً بديعاً، دون مزيد. ولم تعد نيّتي أن أتلبّث أمام جيفة أغنية جميلة.

*

سألتني يكيكو، وهي تدخل الغرفة "فيم تفكّر؟"

كانت الثانية والنصف صباحاً. وأنا راقد على الكنبة، أُحدّق بالسقف.

قلتُ "أفكّر في فلاة".

سألت "فلاة؟". وجلست جنب قدميّ، تنظر إليّ. "أيّة فلاة؟"

(١) قد يقصد الموسيقى التصويرية لفيلم ميشيل كورتز الحربيّ الرومانسيّ "كازابلانكا" (الدار البيضاء)، بطولة همفري بوجارت، عام ١٩٤٢. (م)

"فلاة عادية. بكثبان رمل وقليل من الصبّار. فيها الكثير، مما يعيش هناك".

فسألت "وأنا ضمن هذه الفلاة؟"

قلتُ "طبعاً. كلّنا نعيش هناك. لكن الحياة الفعلية هي للفلاة نفسها. كما بالفيلم".

"أيّ فيلم؟"

"فيلم ديزني: الفلاة الحية[1]. تسجيليّ عن الصحراء. ألم تريه وأنتِ صغيرة؟"

قالت "لا". ظننتُ ذلك أمراً غريباً نوعاً. فكلّ من كان بمدرستي الابتدائية، تقاطر إلى السينما ليراه. لكن يكيكو أصغر مني خمس سنوات. ربما كانت طفلة حين ظهر، فلم يكن لها أن تراه.

"لماذا لا نؤجّره الأحد القادم ونشاهده معاً؟ فهو فيلم جيد. مشاهد بديعة، فيه أنواع الحيوانات والأزهار كلّها. سيُعجب الصغار".

فابتسمت يكيكو. مرّ زمان طويل منذ رأيتها تبتسم.

سألَت "هل تريد أن تتركني؟"

قلتُ "يكيكو، أنا أحبكِ".

"قد تحبّني، لكني أسألكَ إن كنتَ تريد أن تتركني. والردّ هو، نعم أو لا. لا أتوقّع غيرهما".

(١) فيلم تسجيليّ، من إنتاج والت ديزني، عام ١٩٥٣، عن صحراء تقع جنوبيّ الولايات المتحدة، سيناريو: ونستون هيلبر، وإخراج: جيمس ألجار. (م)

قلتُ "لا أريد أن أتركك". وهززتُ رأسي. "ليس من حقّي أن أقولها، لكني لا أريد أن أتركك. لو تركتكِ الآن، فلا علم لي بما قد يحدث معي. ولا أريد أن أعود وحيداً من جديد. أُفضّل الموت"..

فمدّت يداً وضعتها على صدري، وهي تنظر في عمق عينيّ. قالت "انسَ الحقوق. لا أظنّ امرأً يملك مثل هذه الحقوق".

أحسستُ حرارة يدها على صدري، ففكّرتُ في الموت. كنتُ سأموتُ في ذلك اليوم على الطريق السريع مع شيماموتو. لو حدث، لما عاد لجسمي وجود. أكون قد رحتُ، ضعتُ للأبد. كأشياء أخرى عديدة. لكن هاأنا ذا. وهاهي، على صدري، يد يوكيكو الدافئة.

قلتُ "يوكيكو، أنا أحبكِ كثيراً. أحبكِ منذ أول يوم قابلتكِ، ولا أزال أحسّ الشعور نفسه. لو لم أقابلكِ، لكانت حياتي لا تُحتمل. فأنا ممتنّ أكثر من الكلمات. وهاأنا ذا، آذيتكِ. لأني أنانيّ عاجز، لا أستحقّ كوني إنساناً. فبدون سبب ظاهر، أوذي مَن حولي، وهو ما يؤدّي بي إلى أن أوذي نفسي. أُدمّر حياة آخر، وأُدمّر حياتي. ليس لأني أريد هذا. لكن هكذا تُختتَم الأمور".

قالت يوكيكو بهدوء "لا تجادل أكثر". بقي أثر من ابتسامتها بزاويتَي فمها. "أنتَ أنانيّ عاجز، وقد آذيتني، فعلاً".

نظرتُ في وجهها فترة. لا يبدو من كلماتها ما يلومني. لم تكن غاضبة، أو حزينة. كانت، فحسب، توضّح الواضح.

أخذتُ وقتي، أحاول العثور على الكلمات المناسبة. "أحسّ دائماً أني أجاهد لأصبح شخصاً آخر. كمن يسعى لإيجاد مكان جديد، أتشبّث بحياة جديدة، شخصية جديدة. أظنّه من عملية النمو، مع أنه أيضاً مسعىً لإعادة تنشئة نفسي. لأصبح أنا مختلفة، تحرّر نفسي من كلّ شيء. كنتُ

أصدّق جاداً أني قد أهرب من نفسي؛ طالما بذلتُ جهدي. لكني أصطدم دائماً بنهاية ميتة. لا يهمّ أين ذهبتُ، فالأمر ينتهي بي لأعود أنا. ما يُفقد، لا يتغيّر. قد يتغير المشهد، لكني أظلّ الشخص الناقص القديم نفسه. العناصر المفقودة ذاتها تُعذّبني بجوع لا يشبع. أظنّ ذلك النقص هو ما يقرّبني من تعيين نفسي. لأجل خاطركِ، أحبّ أن أصبح شخصاً جديداً. لن يكون أمراً سهلاً، لكن لو منحته نفسي، سأُوفّق في التغيير. الحقيقة أنه، لو عدتُ للموقف نفسه، فقد أفعل ما فعلتُ كلّه من جديد. قد أؤذيكِ من جديد. ليس لي أن أعد بشيء. ذلك ما عنيتُه حين قلتُ، إنه ليس من حقّي. فلا أملك الثقة للفوز بما في من قوّة".

"وتسعى دائماً للهرب من هذه القوة؟"

قلتُ "أظنّ".

ويدها ترتاح على صدري، قالت "أنتَ رجل بائس". ظننتُ أنها تقرأ بصوت عالٍ، شيئاً كُتب على جدار.

قلتُ "لا أعرف ماذا أقول. أعرف أني لا أريد أن أتركك. ولا أعرف إن كان هو الردّ السديد. لا أعرف حتى إن كان خياري أم لا. يوكيكو، أنتِ تعانين. كما أرى. وأحسّ بيدكِ هنا. لكن، هناك شيء وراء ما يُرى أو يُحسّ. سَمِّه مشاعر. أو محتملات. فهي تنبع من مكان، ثم تمتزج معاً داخلي. فلا خيار عندي أو ردّ".

صمتَت يوكيكو طويلاً. بين حين وآخر، تكرّ شاحنات في الخارج. فأتطلّع من النافذة ولا أرى شيئاً. زمان غُفل فقط، ومكان يلحم الليل بالنهار.

قالت يوكيكو "طيلة الأسابيع الماضية، كنتُ أفكّر فعلاً في الموت. لا أقولها لأُهدّدك. فهي حقيقة. كم كنتُ وحيدة، حزينة. ليس الموت بهذه

الصعوبة. كان عزم الحياة ينزّ مني بطيئاً، مثل هواء يُشفَط بطيئاً من حجرة. حين تحسّ بهذا، فلا يبدو الموت أمراً مهولاً. لم أفكّر حتى في الصغار. لم يخطُر ببالي ما قد يحدث لهما بعد أن أموت. هو السبب أني أحسستُ بالوحدة. لا علم لكَ، هه؟ لم تمنحه قطّ فكراً جدياً، أليس كذلك؟ ما أحسّ به، ما أفكّر فيه، ما قد أفعله".

لم أقل شيئاً. فأبعدت يدها عن صدري، وضعتها في حجرها.

"عموماً، سبب أني لم أمت، سبب أني لا أزال حية، هو تفكيري إن كان عليكَ أن تعود، أو إن كان عليّ أن أُعيدكَ. ليست مسألة حقوق، صواب أو خطأ. قد تكون عاجزاً. عديم القيمة. وقد تؤذيني من جديد. لكنه لم يعد يهمّني. ولا تفهم".

قلتُ "يُحتمل أني لا أفهم".

قالت "ولا تسأل".

فتحتُ فمي لأقول، فلم تخرج الكلمات. كانت على حقّ: فلم أسألها عن شيء. لماذا أنا؟ ليس عندي فكرة.

قالت يكيكو "الحقوق هي ما ستبنيه، من الآن فصاعداً. أو الأفضل، ما سنبنيه معاً. فكّرنا أننا شيّدنا الكثير معاً، لكننا لم نُقم شيئاً بالفعل. مضت الحياة في سلاسة تامة. وكنا سعيدين. ألا تظنّ؟"

فأومأتُ.

لفّت يكيكو ذراعيها على صدري، تنظر لي. "كانت لي أيضاً أحلام، كما تعرف، لكنها ذات يوم على الأفق اختفَت. قبل لقائكَ. قتلتها. طحنتها، ورميتُ بها لبعيد. مثل عضو داخليّ لم تعد بحاجة إليه، وتودّ أن تفصله عن جسدكَ. لا أعرف إن كان ما فعلته هو الصحيح. لكنه الشيء الوحيد الذي فعلته في ذلك الوقت... أحياناً يأتيني هذا الحلم.

الحلم نفسه، مرة ومرات. شخص يحمل شيئاً بيديه، يقترب مني فيقول: هه، نسيتِ شيئاً. كنتُ سعيدة بالحياة معكَ. لم أكن أريد شيئاً، ولا عندي شكاوى. هناك شيء يطاردني، أستيقظ وسط الليل، يُغطّيني العرق. كنتُ في طراد بما أنبذه مني. تظنّ أنكَ الوحيد المُطارَد، لكنكَ مخطئ. فلستَ الوحيد الذي ينبذ منه شيئاً، أو من ضيّع شيئاً. تفهم ما أقول؟"

قلتُ "أظنّ".

"قد تؤذيني ثانية. لا أعرف كيف أتصرّف عندئذٍ. وقد أؤذيكَ أنا المرة القادمة. ليس لأحد أن يعد بشيء. ليس لأحد منا أن يقطع وعداً. مع أني لا أزال أحبكَ".

فحضنتُها، أُلاطف شعرها.

قلتُ "يكيكو، لنبدأ غداً من جديد. فقد تأخّر اليوم كثيراً. أريد البدء على شكل سليم، مع يوم جديد".

نظرَت إليّ يكيكو فترة. "أظنّكَ لم تسألني شيئاً".

سألتُ "أريد أن أبدأ معكِ حياة جديدة، انطلاقاً من الغد. ما رأيكِ؟"

قالت، وابتسامة واهنة تلوح على شفتيها "أظنّها فكرة جيدة".

*

بعد عودة يكيكو إلى غرفة النوم، رقدتُ قليلاً على الكنبة، أُحدّق في السقف. كان سقف شقّة عادية، لا ميزة فيه. لكني واصلتُ التحديق عن قرب. كلّ مرة، ولوهلة، تُضوّي أنوار سيارة كاشفة. لم يعد عندي مزيد من الأوهام. راح إحساسي بثديَي شيماموتو، صوتها، رائحة جلدها؛ كلّه شحب. ظلّ وجه ايزومي خلو التعابير يطفو على رأسي. وملمس نافذة الأُجرة الفاصل بيننا. فأغمضتُ عينيّ، أفكّر في يكيكو. مرة ومرات،

فكّرتُ فيما قالته. أنصتَّ إلى حركات جسمي، وعيناي مغمضتان. أفضلُ طبعاً أن أتغيّر. عليّ أن أتغيّر.

فكّرتُ، لا أعرف إن كانت لديّ طاقة لرعاية يكيكو والصغار. لا مزيد من الرؤى قد تساعدني، سأنسج أحلاماً لي فحسب. على مرمى العين، فالخواء هو ببساطة - خواء. كنتُ في هذا الخواء من قبل، وقسرتُ نفسي على الانضباط. سينتهي بي الحال، أخيراً، حيث بدأتُ، والأفضل أن أعتاد ذلك. لا أحد سينسج أحلاماً لأجلي؛ فقد حان دوري لأنسج أحلاماً للآخرين. هذا ما سأفعله. لم يعد لمثل هذه الأحلام من طاقة، لكن لو عاد لحياتي معنىً على الإطلاق، فسيكون فيما سأفعله.

محتمل.

والفجر يدنو، تخلّيتُ عن محاولة النوم. رميتُ سترة محبوكة على بيجامتي، مشيتُ إلى المطبخ، وعملتُ بعض القهوة. جلستُ إلى طاولة المطبخ، أرقُب السماء وهي تشعّ بالنور كلّ دقيقة. مرّ وقت طويل منذ رأيتُ الفجر. بطرف السماء تبدّى خطّ أزرق، وبدأ ينتشر كحبر أزرق على صفحة ورق، يعبر الأفق بطيئاً. لو جمّعت ظلال أزرق العالم، وانتقيتَ أكثرها زُرقة، خُلاصة الأزرق، فسيكون هذا اللون هو ما تختاره. أرحتُ مرفقيّ على الطاولة، أتطلّع في المشهد، وعقلي خواء. حين أعلنت الشمس نفسها عبر الأفق، استوعب نورها المعهود هذا الأزرق. سحابة وحيدة تطفو على المقبرة، سحابة بيضاء رائقة، بحوافّ محدّدة. سحابة مرسومة بشكل قاطع، بإمكانك أن تكتب عليها. يوم جديد قد بدأ. لكن ماذا سيجلب هذا اليوم، من يدري.

سآخذ ابنتيّ إلى مدرسة الحضانة، وأذهب للسباحة. الشيء نفسه، كالعادة. تذكّرتُ حمّام السباحة الذي اعتدتُ أن أسبح فيه أثناء المرحلة

المتوسّطة. رائحة المكان، الطريقة التي تصعد بها الأصوات للسقف. وسط ذلك، أوشك أن أصير امرأً جديداً. واقفاً أمام المرآة، أرى تحوّلات جسمي. أُقسم أني، ليلاً، في السكون، سمعتُ صوت لحمي وهو ينضج. كنتُ قرابة أن أكتسي ذاتاً جديدة، تخطو في مكان حيث لم أكن من قبل.

جلستُ إلى طاولة المطبخ، أرقب السحابة الوحيدة على المقبرة. لا تتحرّك السحابة قيد أُنملة. فهي مثبّتة، مُسمّرة إلى عمود. حان وقت إيقاظ ابنتيّ. كانت الساعة بعد الفجر بقليل، ويجب أن يستيقظا. كانتا الوحيدتين اللتين في مسيس الحاجة إلى هذا اليوم الجديد، أكثر بكثير مني أنا. سأروح غرفة نومهما، أشدّ عنهما الغطاء، أُريح يديّ على جسديهما الدافئين، وأعلن بدء يوم جديد. ذلك ما عليّ أن أفعله. لكن لسبب ما لم أستطع النهوض عن طاولة المطبخ. فطاقتي قد تسرّبت من جسمي، كأن شخصاً زحف ورائي، ونزع السدادة في صمت. كان مرفقاي على الطاولة، فقمتُ بتغطية وجهي براحتيّ.

داخل هذه العتمة، رأيتُ مطراً يهطل في البحر. مطر ناعم يهطل في بحر فسيح، دون أن يجد هناك من يراه. مطر يضرب صفحة البحر، مع أنه حتى الأسماك لا تعرف أنها تمطر.

إلى أن جاء شخص، أراح يداً في خفّة فوق كتفي؛ فراحَت أفكاري مع البحر.

هوراكي موراكامي

ولد هوراكي موراكامي عام ١٩٤٩ في مدينة كيوتو باليابان، وقابل زوجته يوكو بالجامعة، ثم افتتحا نادياً ليلياً للجاز في طوكيو، أطلقا عليه "بيتر كات". وكان للنجاح الصاعق لروايته الأولى "غابة نرويجية" (١٩٨٧) أثر بالغ في شهرته المحلية، إذ باعت تسعة ملايين نسخة. لكنه فرّ من اليابان ولم يعد إلا عام ١٩٩٥. رواياته الأخرى: "بعد الزلزال"، "ارقص ارقص ارقص"، "انقراض الفيلة"، "أرض العجائب الحارّة في نهاية العالم"، "منرو الأنفاق"، "طِراد العنز البريّ"، "تاريخ خواتم الطير"، "القمر الصناعيّ الحبيب"، "جنوب الحدود، غرب الشمس"، "كافكا على الشاطئ". وقد قام موراكامي بترجمة أعمال عدد من أهمّ كتّاب العالم لليابانية، مثل: سكوت فتزجرالد، ترومان كابوت، جون ارفنج، ريموند كيرفر.

دواوين للمترجم

١ ـ طور الوحشة، جماعة أصوات، القاهرة، ١٩٨٠.

٢ ـ قبر لينقض، طبعة محدودة، القاهرة، ١٩٩١.

٣ ـ على تراب المحنة، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥.

٤ ـ فحم التماثيل، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٧.

٥ ـ الملاك الأحمر، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٠.

٦ ـ مخلب في فراشة، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٠.

٧ ـ بكاء بكعب خشن، دار ميريت، القاهرة، ٢٠٠٣.

٨ ـ خضراء الله، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٤.

٩ ـ ملاّح تحبسه الرماح (الأعمال الشعرية ج ١)، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٦.

ترجمات شعرية

١ ـ أشعار سودرجران، (بالاشتراك)، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٤.

٢ ـ قصائد حب، آن سكستون، (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٨.

٣ ـ رباعيات مولانا جلال الدين الرومي، دار الأحمدي، القاهرة، ١٩٩٨.

٤ ـ الهايكو/رحلة حج بوذية، (شعر ياباني)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠.

٥ - رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز، (ديوان)، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٢.

٦ - نهايات، ديريك والكوت، (شعر)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٣.

٧ - رسائل عيد الميلاد، تيد هيوز، (ديوان)، إبداعات عالمية، الكويت، ٢٠٠٣.

٨ - كاس الألم، إديت سودرجران، (ديوانان)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٤.

٩ - أعشاش تحت القلب، (ديوان الشعر السويدي)، اتحاد كتاب الإمارات، ٢٠٠٤.

١٠ - جمهورية الوعي، (أشعار من ٥ قارات)، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥.

ترجمات روائية

١ - جاز، توني موريسون، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٥.

٢ - فالس الوداع، ميلان كونديرا، روايات الهلال، دار الهلال، ١٩٩٨.

٣ - فالس الوداع، ميلان كونديرا، دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠١.

٤ - جاز، توني موريسون، دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٣.

٥ - الساعات، مايكل كننجهام، دار الحوار، سوريا، ٢٠٠٤.

٦ - الساعات، مايكل كننجهام، روايات الهلال، دار الهلال، ٢٠٠٤.

٧ - غرام، توني موريسون، دار الحوار، سوريا، ٢٠٠٤.

٨ ـ فالس الوداع، ميلان كونديرا، مهرجان القراءة للجميع، هيئة الكتاب، ٢٠٠٥.

٩ ـ حرير، أليساندرو باريكو، دار الأحمدي، القاهرة، ٢٠٠٥.

١٠ ـ فنانة الجسد، دون ديليلو، دار أزمنة، عمّان، ٢٠٠٦.

١١ ـ في عشق جيفارا، آنا ميناندس، دار كنعان، دمشق، ٢٠٠٧.

١٢ ـ فنانة الجسد، دون ديليلو، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٧.

١٣ ـ حرير، أليساندرو باريكو، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٧.

١٤ ـ مذكّرات شخص، مايكل كننجهام، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٧.

١٥ ـ جوستين، المركيز دو ساد، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٧.

ترجمات قصصية

١ ـ مرآة الحبر، بورخيس، آفاق الترجمة، هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٦.

٢ ـ كتاب الحواس، إيتالو كالفينو، مركز الحضارة العربية، ١٩٩٩.

٣ ـ شجرة مطر، (قصص معاصرة)، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١.

٤ ـ مرآة الحبر، بورخيس، دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠٢.

٥ ـ أصل الطيور، (بالاشتراك)، (قصص إيطالية)، دار كنعان، دمشق، ٢٠٠٦.

٦ ـ العين الثالثة، مرجريت أتوود، (قصص كندية)، اتحاد كتّاب الإمارات، ٢٠٠٧.

ترجمات نقدية

١ ـ الخلاص بالحرية (مقالات عن الأدب العربي)، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٣.

٢ ـ الضوء المشرقيّ، أدونيس، (بالاشتراك)، دار بدايات، سوريا، ٢٠٠٥.

٣ ـ تخمينات عن الأدب العالمي، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٥.